الحل الإسلامي ما بعد النكبتين

توفيق الطيّب

(كُتبت هذه الدراسة في عام 1968)

المقدمة

25 صفر 1378 هـ [1]

اين نضعه في تاريخنا؟ هل نضعه مع سقوط القدس على يد الصليبيين في المشرق ، أم مع سقوط قرطبة على يدهم في المغرب ، أم سقوط بغداد على يد التتار ؟ كلا انه أخطر من كل هذه الايام. أخطر من يوم سقوط القدس (493 هـ – 1099م) مهما كان الحس الديني عندنا مرهفا ، لأن صليبيي الأمس كانوا دوننا حضارة ولم يكن أمامهم الا أن يسلموا أو يرتدوا .. وقد حالت المسيحية دون اسلامهم فارتدوا.. اخطر من سقوط قرطبة (635 هـ – 1237م) رغم أن صفحة مشرقة من تاريخنا قد طويت هناك ، لأن سقوط قرطبة طعنة في الجناح أما هذه ففي القلب .. وأخطر من سقوط بغداد على يد التتار (656 هـ – 1285م) رغم ان الحدث يكاد من هوله يتجاوز قدرتنا على التفسير التاريخي فنذهب في تعليله الى عامل غيبي في التاريخ.. لأن التتار كالصليبيين لم يكن أمامهم بد من أمرين اما الذوبان أو الارتداد وقد أذابهم الإسلام بسرعة..

لم تكن تلك الحوادث ذات مغزى حضاري ، لم تكن غزوا حضاريا بل كانت موجات من البرابرة تكتسح ما تلقاه في طريقها، وكانت عاجزة كل العجز عن التفاعل بالتراب.. وتعميق الجذور في الأرض.. فقد كان طابع حياتها الترحال وهي بذلك لم تكن تحمل أي معنى من معاني التحدي وذلك بخلاف التحدث الغربي الحديث القائم حتى اليوم. هذا التحدي الذي كان الإسلام قادرا بلا شك على رده في حينه لولا العزلة العثمانية.. وكان العالم العربي منه قادرا على رده يوم صاح به جمال الدين الافغاني قبل قرن كامل داعيا اياه الى النهضة لولا عملية الصرف المتعمد أو الالهاء التي قام بها الغرب ، عن طريق الغزو الثقافي – التبشيرية والاستشراق – الذي أوجد في بلادنا "تيار التغريب" الذي انصرف عن قضية النهضة الى الانشغال بمشكلات وهمية . وقد كان رد الفعل الطبيعي عليه هو تيار الدفاع الإسلامي ، الذي انصرف هو أيضا عن المشكلات الأساسية للمجتمع الإسلامي فدخل معه في متاهة لم يعد يعرف كيف يخرج منها، ذاك ينطلق من "واقع الآخر" لا من واقعنا فيردد: الإسلام غير واقعي ، وهذا ينطلق من "واقع الماضي " لا من واقع الحاضر فيجيب الواقع غير الإسلامي .. هذه المعركة الكلامية هي ما كان يريده الغرب بالضبط واعني بذلك أن يختلق للفكر الإسلامي دائما أهلية تصرفه عن قضيته الأساسية في التحدي. ولقد استطاع تيار التغريب ذو الاتجاه اللبرالي العلماني أن يلهي الفكر الإسلامي عن قضيته الأساسية زمنا ، ويحاول نفس التيار اليوم باتجاهه المسمى

---

[1] **الموافق 5 يونيو 1967**

الاشتراكي الثوري أن يصرفه مرة أخرى عنها.. وبينما نحن منشغلون بهذه المشكلات الوهمية كان الغرب قد نصب لنا "شركاً" .. فجاء لنا بـ "تتاره" وقذف بهم في القلب من أمتنا.. حتى اذا ما أخذنا الأمر مأخذ الجد وطرحنا أُلهيات تيار التغريب جانبا واجهنا خطرا حقيقا آخر هو "التغريب بالقوة" أو الوجود الصهيوني اليهودي في فلسطيننا. والذي يمثل حضور التحدي في أشد صورة عنفا، في الإنسان.. فنحن هنا لا نواجه ثقافة الغرب في تيار بل نواجهها في الإنسان الغربي نفسه ونواجه الحضارة الغربية الحديثة في فكرها وأخلاقها وعلمها. ونواجهها لا على صورة حوار سلمي بل على صورة صدام محتوم.. لأننا لا نواجهها كثقافة بل ككتلة بشرية ، كاحتلال ، وضعنا أمام احتمالين لا مفر منهما الأرض أو الحرب . والأرض تعني هنا التراب والتاريخ والشعب.

وهكذا فإن يوم 25 صفر 1378 هـ قد وضع أمتنا وعقيدتنا أمام قدرهما بقاء أو فناء أما ان تحيا هذه الأمة أو أن تموت، أما ان تستمر ثقافتنا أو ان تندثر .. ان الإسلام كعقيدة ،والعرب كشعب يواجهان مصيرهما.. والمحك هو فلسطين.

ونحن نرى ان فلسطين هي قضية الإسلام والحركة الإسلامية الاولى ، وأن مصيرها ومصيرهما مترابطان متلازمان ، ونود بهذه الدراسة أن نسهم بكشف الحجب المظلمة التي تحاط بها قضية مصيرنا والتي بلغت اليوم حدا تكاد تضيع معه معالم الحقيقة كلها.

والحمد لله رب العالمين

توفيق الطيب

النكبة والفكر

النكبة والفكر ذلك ما لا يتحدث عنه أحد في بلادنا مع أن النكبة في جوهرها هي نكبة الفكر العربي آخر التحليل، أو بتعبير أدق ما أسميناه الفكر العربي الحديث ، فنكبتنا بأفكارنا كانت قبل نكبتنا بأرضنا .. بل كانت هي المقدمة والسبب البعيد لنكبة الأرض..

فاذا نظرنا الى هذا الفكر من ناحية تاريخه تبدو لنا النكبة هزيمة اتجاه.. واذا ما نظرنا اليه في جوهره تبدو لنا هزيمة خصائص.

أما في الاتجاه فيمكن القول أن نكبة 1948 هي هزيمة ما أسميناه الفكر اللبرالي العربي . وإعلان صارخ بخطأ الاتجاه.. ونكبة 1967 هي هزيمة ما سمي بالفكر الاشتراكي الثوري. وهي اعلان آخر مرة اخرى بخطأ الاتجاه أيضا.. وإيذان بنهاية مهما حاول الثوريون المناورة والترقيع لستر عوراتهم.. وكلاهما هزيمة لتيار التغريب في الفكر العربي.

فالهزيمة الأولى هي نهاية لفكر ما قبل النكبتين ، والهزيمة الثانية هي نهاية لفكر ما بين النكبتين، وكلتاهما خاتمة للتجارب والأخطاء . اذ ن لم يعد بوسع التاريخ أن يتحمل تجاربنا وأخطاءنا أكثر من مائة سنة .. ومن حق شعبنا علينا أن نعترف له بأن كلتا الهزيمتين لم تكونا هزيمة له ، فما من أحد مثله قدم التضحيات والضحايا بل هزيمة لما سمي بالفكر اللبرالي العلماني والفكر الاشتراكي الثوري ، انها ليست هزيمة شعب ولا جيش بل هزيمة هذا الفكر وقيادته السياسية... ومن حقه علينا أن نعترف له بنقاء الضمير الذي ينم عن حس خلقي مرهف ، وحس تاريخي عفوى صادق ، وأن نبين له أن القيادات الثورية اليوم هي على النقيض من هذا تماما. إنها فاقدة للحس الخلقي والتاريخي معا.. أن هنالك تناقضا عميقا بين ضمير شعبنا الذي تمزقه المأساة ، وبين واقع قياداته الفكرية والسياسية القائمة اليوم .. ومازال هذا التناقض يزداد عمقا كل يوم حتى كاد شعبنا يصبح مجموعة من المتفرجين..

والسؤال المطروح : لماذا يخطئ الفكر العربي الحديث الاتجاه؟ لماذا يهزم هذا الفكر دائما؟ لماذا يؤدي بنا الى النكبات ؟ هنا تنكشف لنا حقيقة أخرى أعمق من تلك ، أعني أن الفكر العربي الحديث لم يكن له اتجاه أصلا. ذلك أمر ينبغي الاعتراف به وعدم المكابرة فيه ، اذ لكي يكون للحديث عن الاتجاه مغزى لابد من معرفة الأهداف أولا . والفكر العربي الحديث لم يكن له اتجاه اصلا. ذلك أمر ينبغي الاعتراف به وعدم المكابرة فيه ، اذ لكي يكون للحديث عن الاتجاه مغزى لا بد من معرفة الأهداف اولا . والفكر العربي الحديث قد عجز عجزا واضحا عن تحديد غاياته وتحديد وسائله ، ومن الخطأ ان يخيل الينا اننا عرفنا أهدافنا ، وجهلنا فقط

وسائلنا لاننا لا نقول عن فكر يجهل وسائله انه اكتشف غاياته الا اذا تجاهلنا العلاقة الجدلية القائمة بينهما فعلا.

ليس هذا فحسب ، بل ان السؤال عن الاتجاه لم يطرحه الفكر العربي الحديث اصلا، لأنه هو نفسه لم ينطلق من واقعه ومن ظروفه .لم يعرف نفسه ولا أين يقف في تيار التاريخ.. وانما انطلق من التعلق بواقع آخر سواء أكان (ماضي الأنا) أو (حاضر الآخر) .فاذا تساءلنا لماذا؟ كان لابد لنا من أن نلتمس الاجابة في خصائص هذا الفكر. ومن هنا تبدو لنا النكبة هي نكبة الفكر العربي الحديث . والهزيمة هزيمة فكر ، لا يفكر بمفاهيم..ولا يفكر بدقة .. فكر غير نقدي .. وغير واقعي ..وغير عملي..

فكر يجهل في التأمل ..وفن التساؤل .. وفن الحوار.. وفن النقد.. وكذلك – أو على الأصح لذلك – فهو يجهل فن التركيب .. فكر ساكن.. لا يَتجدّد ولا يُجدّد.. لا يحيا ولا يموت.. فكر نتحدث عنه مجازا لأنه وبكل حق ليس حقيقة..لعله في طور التكوين. أما انه كائن متميز له خصائصه فهذا ما لا وجود له: فكر لا هو مع الفكر الإسلامي إن قارناه بماضيه.. رغم أنه استمرار تاريخي له.. ولا هو مع الفكر الغربي الحديث إذا قارناه بالآخر، رغم أنه يتداول الفاظه ومصطلحاته.. ورغم أنّا أعرناه لفظة الحديث والتحديثية.

هزيمتنا هي إذن هزيمة فكر ، لأن ازمتنا هي أزمة فكر . جوهرها عجز هذا الفكر عن رد تحدي الفكر الغربي الحديث ، لأنه عجز عن إدراك جوهر الأزمة، لتجاوزها. والنكبة هي التجسيد الواقعي لهذه الهزيمة ، ودليل على أن الازمة ما تزال قائمة.

كما أن الوجود الصهيوني اليهودي في فلسطيننا هو تجسيد للتحدي الغربي الحديث ودليل على أنه ما يزال قائما. فإذا نظرنا إلى التحدي ككل أمكن أن نعتبر ظاهرة الثقافة اللبرالية العلمانية في مجموعها ، محاولةً لإضعاف التحدي لا ردا عليه. وظاهرة الاشتراكية الثورية اليوم ، محاولة لإلغاء التحدي من أساسه..

ورد الفعل الطبيعي على التحدي كامن في تيار الدفاع الإسلامي ، الذي مهما قسونا عليه في النقد اليوم ، فإنه من ناحية دوره التاريخي قد أدى مهمة إرجاع التوازن النفسي للمجتمع الإسلامي وللمسلم المثقف على السواء. كذلك فإن إنتاجه لا يخلو من بعض محاولات أصيلة.

ولكن اذا كنا لا نملك اتجاها فإلى اين نحن نسير؟ أنا لا أعرف ولا يمكن أن أتصور أن أحدا يعرف .وانا لا اسمى هذا سيرا.. لأن السير يعني وجود هدف تتابع خطوات منتظمة،أما نحن فنتخبط .. واما غيرنا – خصمنا – فلا يسير فقط بل يسيّرُنا أيضا شئنا ذلك أم أبينا..

وسؤال آخر ماذا نعمل نحن اذا ؟والجواب اننا لا نعمل. نحن نتحرك.ذلك أن العمل يعني الجهد الاجتماعي المنظم المستمر في وقت معين لتحقيق هدف محدد . أما بدون ذلك فتلك هي الحركة. كحركة النجوم في مداراتها. والفرق أن تكل تخضع لقانون الحتمية الطبيعية التي تضبط حركتها. اما نحن فكالارانب في المتاهة. كلما داهمنا خطر دفعتنا غريزة البقاء الى أية حركة عشوائية، في اتجاه .. نطلب النجاة.. والذين يعرفوننا يعلمون ذلك ويشرفون على متاهتنا بكل عناية ويعدلونها حسبما يقتضيه اجراء تجاربهم . ثم نتحدث بعد ذلك عن انفسنا كما لو كنا احرارا..

وانا اعرف إن كثيرا من الثرثارين في بلادنا سيقولون وهل عندنا من الوقت للتساؤل عن الاتجاه.. أي هل عندنا وقت لنفكر.. أن علينا أن نعمل.. هؤلاء هم اللعنة التي ابتُليت بها هذه الأمة.. ويرددون: ليس المهم هو البحث.. المهم هو التطبيق.. خرافة أخرى من خرافاتنا التي لم نصرعها..

كيف يمكن ان نعمل ما لم ننظر فيه؟ كيف يمكن ان نطبق ما لم نبحثه أصلا؟ هؤلاء ليسوا في الحقيقة اعداء النظر فحسب بل هم اعداء العمل الحقيقي، واعداؤنا الحقيقيون ،واعداء الحقيقة ايضا. ان الامم الحية تنظر – أي تفكر – بما ستعمله بعد خمسين سنة او مائة سنة – أمّا هم فقد سرقوا من عمر أمتنا عشرات السنين لم يفكروا فيها ولم يعملوا..

لقد كنا قبل نكبة 1948 ندور في متاهة سياسة لا دماغ لها.. لأن السياسي قد تجاوز المفكر بحيث أصبحت السياسة تهريجاً، والسياسي حاوياً. أما بعد 1948 فقد أصبحنا ندور في متاهة أكبر أسموها زورا وبهتانا "ثورة". ثورة لا دماغ لها ولا سياسة ، لأن العسكري تجاوز السياسي والمفكر معاً.. فلصبحت الثورة ضربا من الصراع النيروني.. كان لابد من أن ننتظر وراءه النكبة الثانية.

هل من مخرج؟

نعم: أن ننفض أيدينا من كل ما قبل النكبتين إلى الأبد .. أن نُسقط عالم الافكار الذي أدى إلى النكبتين .. الأفكار المميتة.. القاتلة .. المؤدية حتماً الى الفناء المحقق.. و أن نستبدلها بأفكار حية .. باعثة .. محرّكة بنّاءة .. تحفظ لنا البقاء .. وتردنا إلى طريق النهضة.

إن دولة المخابرات لم تسقط يوم 5 حزيران "يونيو" ولن تسقط أبداً ما لم يسقط عالم الأفكار الذي أقامها .. والذي قبلها.. والذي حماها..

ومن هنا تأتي مسؤولية مفكر ما بعد النكبتين ، الذي أصبح من واجبه أن يتحرر من عقدة الخوف من السياسي ومن العسكري معاً.. فيصبح التزامه الأخلاقي هو الأساس لمواقفه الفكرية.. لا للاتجاهات السياسية المتقلبة - إذ لا يمكن أن نهزم خرافة خصمنا إلا إذا هزمنا خرافاتنا ، ولا يمكن أن نصرع باطله إلا أذا صرعنا باطلنا.. ولا يمكن أن نصرع الباطل إلا إذا كنا نعيش للحق. إن الصراع من أجل الحقيقة كأي صراع يحتاج إلى شجاعة.. وقول الحق يحتاج إلى شجاعة.. وقول الحق يحتاج إلى الجرأة.. والفكرة العظيمة لا يحملها إلا العظماء.. أما إذا كنا نصرع الحقيقة كل يوم في أرضنا ، فكيف يمكن أن نكون جديرين بنُصرتها ضد عدونا؟.. إذا كنا نقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، فكيف يمكن أن نحتفظ بمَلَكَة التمييز؟.

إن المفكر الذي يتنازل عن أخلاق المعرفة وعن جرأة قول الحق يصبح ذيلا للسياسي.. يتجاوزه ويزدريه.. ويتجاوز معه الحقيقة والواقع.. وبذلك يضحي ب أهداف شعبنا وآلامه باسم شعبنا وآلامه.

إن المفكر الذي يلحق السياسي ليس إلا ثرثارا..يحمل قلماً..وفي يده ورقة..وله لسان يلوك ألفاظاً.. كذلك فإن السياسي الذي يتجاوز المفكر ليس إلا مهرجاً .. لا بد اذن من تحرير الفكر من قبضة العسكري.. وعبث السياسي.. لا بد أن نفكر برؤوسنا لا ببنادقنا.

نحن إذن بحاجة إلى المفكر الذي يفكر بالنكبتين ..ويفكر للمنكوبين.. بحاجة إلى المفكر المنكوب.

هذا هو مفكر ما بعد النكبتين وعلى طريقه يجب أن يسير أديب ما بعد النكبتين ..وعَالِم ما بعد النكبتين وجيل ما بعد النكبتين..

التجارب والأخطاء

مع ميلاد كل مأساة تشهد ميلاد حقيقية، فإذا كانت المأساة مأساة فرد، فإن المرء يكتشف حقيقة من حقائق الحياة! أما حينما تكون المأساة مأساة أمة، فإن الذي ينكشف لها هو حقائق التاريخ.

ولمأساتنا اليوم جانبان : جانب فردي دارت فصوله على شواطئ نهر الأردن ، نهر الدموع والدماء ، نهر الآلام ، نهر الاحزان ، أو على رمال سيناء صحراء الظمأ والجوع والعذاب ، صحراء الكبرياء الجريحة والكرامة الممتهنة والأباء المغلوب على أمره. أشخاص هذه المأساة

طفل رضيع فرَّت به أمه من وجه الغزاة الأوروبيين فابتلعها النهر وإياه، أو شيخ هَرِم أكلت وجهه ويديه وعينيه نار النابالم إحدى ثمار الضمير الأوروبي، أو أهل قرية أبرياء ذبحهم أبناء الروم كلهم مرة بسكين المسيح وأخرى بسكين يهوذا.

هذا الجانب من المأساة الذي وقف فيه آباؤنا وأمهاتنا و إخواننا وأخواتنا أمام تحدي البقاء يدفعون عن حقهم الأعزل في الحياة برابرة الفرنجة الجدد لابد وأن ينتهي بالاحتقار لفكر أوروبا وضميرها وأخلاقها.

هذا الجانب من المأساة وتاريخ جراحنا فيها نتركه للفن والأدب كي يعبر عنه نلتفت نحن إلى الجانب الاخر الذي وضع أمتنا أمام أقدارها حيث لا يتكلم التاريخ لغة الشعر ولا ينهج نهج الفن. بل يتحول التاريخ إلى جغرافية يتكلم بلغة الأرض وينهج نهج سياسة القوة.

في مأساة الفرد ينكشف للانسان مغزى جديد للحياة أو الوجود ، أما في مأساة الأمة فتنكشف لها حقائق تاريخها، وشروط ميلادها وبقائها وقواعد المنطق الصارم لوجودها واستمرارها وذلك حين يضع التاريخ الأمة وجها لوجه أمام أقدارها في حلبة الصراع الأبدي – صراع الأمم .. فتاريخ أمة ما هو دوماً زمان وصيرورة ، إلا حين تلد المأساة أمة ، عندئذ يجمد التاريخ ويستحيل الى واقع صخري .. إلى "مكان".. إلى "أرض".. إلى "وطن". وتتوقف أنفاس الحياة فتشهق الأمة شهقة واحدة هي الشهقة الأولى لميلادها ، فإما أن تعيش بعد ذلك ملء الحياة وإما أن تُطوي صفحتها إلى الأبد. هذه الشهقة هي وخزة الماضي لأمةٍ فقدت "ذاكرتها" فـإما أن تصحو بعدها فتعي شروط وجودها واستمرارها كأمّة وكثقافة فتملك إرادتها وتعرف كيف تتحكم في التاريخ وتصنع المستقبل ، وإما أن تُصاب باليأس الذي هو شلل للفكر والإرادة معاً.

ونحن نكتب هذه الكلمات لأننا نريد لشبابنا أن يعي ، لأننا نريد لأمتنا أن تبقى ولثقافتنا أن تستمر.. ولأننا نريد لشبابنا أن يملك إرادته، لأننا نريد لأمتنا أن تعيد صنع التاريخ وأن يكون المستقبل لها.

وتمتاز المأساة بأنها المعيار العملي الوحيد لليقين التاريخي الذي يمكن أن يقدمه البحث العلمي للتاريخ .. فالحقائق الثابتة في تاريخ الأمة يمكن أن يقدمها علم التاريخ مُعَلّلة تعليلا يتفق ومنطق البحث التاريخي ومنهجه و أسلوبه. ولكن كل هذا يظل معرفة مُعَلّلة وتظل الموضوعية لدى المؤرخ ضربا من التفسير. أمّا المأساة فهي وحدها التي تضع هذه المعرفة في محك التجربة فتكشف بذلك عن قيمتها العملية ، أي عن القيمة التاريخية الحقيقية للأفكار التي استندت اليها تفسيرات المؤرخين ، فتمدنا على هذا النحو باليقين التاريخي الذي لا يُرَدّ.

إن "صناعة" التاريخ تظل ضربا من المحاولة لمعرفة "ما وقع فعلا" في ماضي أمة من الأمم. و"تفسير" التاريخ يظل ضربا من محاولة "فهم" هذا الذي وقع .. وكل محاولة في الفهم تظل ضرباً من فلسفة التاريخ يخضع "لناقده المؤرخ" حتى تجئ النكبة معياراً لا يخطئ .. فتطرح النكبة كل التفسيرات المتوهمة.. وتُبقى على "التفسير الصحيح" ... تطرح السفسطة جانباً وتُبقى على "الحقيقة" وحدها عارية معراة.. فيذهب "الزبد" جفاء ويبقى "ما ينفع الناس" ماكثاً في الأرض.. أرض الواقع.. واقع النكبة.. ماثلاً أمام أسماعهم وأبصارهم وبصائرهم ..

فما هي هذه الحقيقة التي تمخضت عنها النكبتان؟

الجواب أن الإسلام والاسلام وحده كدين وحضارة هو الشرط الوحيد لبقائنا واستمرارنا كأمة وثقافة.. في وجه التحدي الغربي الحديث – السياسي والثقافي منه على السواء.

هذه الحقيقة – التي حاولنا قرناً كاملاً منذ مطلع القرن التاسع عشر تجاهلها أو انكارها أو اللف والدوران حولها – قد ردتنا التاريخ اليها مرتين من خلال مأساة فلسطين. المرة الأولى في نكبة 1948 التي أثبتت فشل "اللبرالية العربية" وفي نفس الوقت نهايتها بحيث لم تمض إلا سنوات قليلة حتى انهارت معظم انظمتها [2] وتسجل في نفس الوقت نهايتها ، بحيث لن يمضي وقت طويل حتى تتهاوى أنظمتها الثورية الواحد بعد الآخر. وقد رافقتها أيضا خيبة أمل لدى الاشتراكيين العرب – باستثناء الشيوعيين – في قيم الاشتراكية الأوربية [3]

وكما كان حكم الانفصال في سورية آخر محاولة يائسة من اللبرالية العربية لإنقاذ نظامها، كذلك لا بد للاشتراكية العربية من تجربة يائسة [4] لإنقاذ نظامها. تجربة لم يبد بعد أية ملامح واضحة لها ، إذ مازال كل شئ من هول النكبة في حالة سيولة لم يتبلور منها شئ – إلا موقف الشيوعيين العرب – ومن هنا فإن التجربة المقبلة تجربة خطيرة لأنها قد تدفعنا إلى الماركسية السوفيتية – وهو ما يريده الشيوعيون – أو تردنا الى الإسلام – وهو ما يُتوقع من مصر (كنانة الله).

[2] إن الوجود الصهيوني في فلسطين والاستقلال السياسي والنظم العسكرية التي ارتبطت بها الاشتراكية الثورية هي التي جعلت عمر التجربة قصيرا بالقياس لتجربة اللبرالية التي تختلف بطبيعتها وطبيعة أنظمتها وغياب الوجود الصهيوني كخطر ماثل عن هذه.

[3] يكفي للدلالة على خيبة أمل الاشتراكيين العرب موقف سارتر واليسار الأوروبي عامة ولعل الدكتور سهيل ادريس أصدق مثال على خيبة الأمل هذه .. فقد مكث يفتح أبواب مجلته "الآداب" في بيروت سنين طويلة لترويج أفكار سارتر وقام بترجمة جل أعماله.. ثم كانت الخاتمة الرسالة المفتوحة التي وجهها اليه إثر النكبة الاخيرة.

[4] ليس أدل على حالة اليأس من التمسك بثورة فقدت كل مبرراتها ويفرد أدى كل دوره– ما أعجب نظرية التكتيك عند الشيوعيين عندما تصبح – كما قال كاسترو – كأنها ضرب من الابتهال ، وإلا فأي منطق يقبل بـ "الحفاظ على الأوضاع" إلا منطق الجمود؟!.

على أن "الانفصال" بحد ذاته كان دليلا ساطعا على "نهاية خطأ قديم وبداية خطأ جديد" وكما كان تغيير الاوضاع والثورة عليها أمرا حتميا بعد 1948 فإن "تغيير الأوضاع" اليوم والثورة عليها هو أيضا ضروري وحتمي وبنفس القوة والشدة.

ان النكبة الأولى التي انهارت على أثرها الاوضاع الديمقراطية الزائفة لأنها فقدت " مبررات وجودها" وانهارت معها الثقافة التي تحميها ، لابد وان تكرر دورتها اليوم مع النظم الثورية ولليسار العربي اللذين فقدا ايضا مبررات وجودهما ، واذا كان "سقوط الاوضاع" عقب النكبة الاولى مقدمة لـ"تغيير الأفكار" ف إن "سقوط الأفكار" اليوم هو المقدمة لتغيير الأوضاع .. [5] بعبارة اخرى ان ما يسمى باليسار العربي – هو يسار لا يعرف اليمين من اليسار على حد تعبير احد كتابه – قد انتهى وعبثا يحاول ان يقاوم نهايته . ان بامكانه ان يخلع القشرة القومية الرقيقة المتبقية فيصبح ماركسيا خالصا – سوفيتيا او ماويا – وان يخلع عنه معها زيف الولاء الوطني فيدخل في اطار الشيوعية العالمية علنا – سواء في اتجاهها الروسي وهو ما فعله الشيوعيون العرب الذين سموا انفسهم بـ "اليسار الثوري". أو في الاتجاه الصيني الذي

---

5 يقول الدكتور برهان الدجاني في ندوة عقدها بضعة من المثقفين وطائفة من الثوريين.. في دمشق ما بين4 إلي 7 تشرين الثاني [توفمبر] 1967 كلمة حق "أيها الاخوة في مجال نقد الذات أريد أن أتساءل من الذي هزم في 5 حزيران؟ أقول لكم باخلاص وتجرد أن الذي هزم هو نحن الجالسون هنا. وسأشرح لكم هذا:

في عام 1948 كان من السهل علينا أن نقول: هي الاسلحة الفاسدة.. البلاط الفاسد.. كلوب باشا.. الرجعية .. هي كل شئ ما عدانا نحن. وكنا نتساءل ، وكيف يصلح الحال؟ وكان الجواب في قرارة نفوسنا عندما نصل الى مراكز السلطة في المجتمع العربي . ولقد كنا قبل 5 حزيران في مراكز السلطة في المجتمع العربي. فنحن اذن الذين هزمنا ويجب أن نقر بمسؤولية الهزيمة، يجب ان نراجع أخطاءنا، يجب أن نسأل أنفسنا لماذا هزمنا؟ ولماذا هزمت الأمة العربية بقيادتنا الفكرية؟" (مجلة المعرفة)، السنة السادسة ، العدد 71 ، كانون الثاني [يناير] 1968، صفحة 198 – 199).

هذه الكلمة الجريئة يسميها الشيوعي أحمد عباس صالح – رئيس تحرير مجلة "الكاتب" المصرية التي يلتف حولها وحول اختها "الطليعة" شيوعيو مصر – كلمة مظلمة .. متهربا من السؤال الذي طرحه الدكتور الدجاني لأن الاجابة عليه تعني حسب نفس المنطق الذي برر الثأر لنكبة 1948 الثأر لهذه النكبة أيضا، أي "حتمية التغيير". وكان أول شعار رفعه شيوعيو مصر عقب النكبة الأخيرة هو "لا تغيير". والاجابة تعني: ثورة حقيقية على هذه القيادات الفوضوية المهزومة، وكان أول عدد أصدره أحمد عباس صالح من مجلته عقب النكبة مباشرة، هو عدد خاص لا بالنكبة بل بالثورة وتحت عنوان "الثورة مستمرة".. وسميت النكبة "احداث 5 يونيو".. وسميت المظاهرات التي نظمت سرا " انتفاضة" [9 يونيو].. وتتابعت الأعداد – خاصة الثلاثة التي تلت النكبة – تتابع طرح الشعارات التي تهدف الى غاية واحدة هي صياغة تفسير ماركسي بمصطلحات غامضة للنكبة.. لا لصرف النظر عن السؤال المطروح فحسب بل وللمساهمة ايجابيا لتعميق المفاهيم الماركسية، لأن القضية الأساسية عندهم ليست هي قضية فلسطين – لهذا كله كرر احمد عباس صالح فكرة استمرار الثورة في رده على الدكتور الدجاني فقال "والثورة ستستمر لأن حركة التاريخ ليست عفوية.. وليست خاضعة لمزاج أحد. إن العالم العربي مهيأ منذ ما قبل بداية هذا القرن لتحول جذري شديد.. وهو ماض في هذا التحول" .. (نفس المصدر صفحة 209).

وهكذا لا تبدو نكبتنا من هذه النظرة مجرد أحداث 5 يونيو فحسب بل وضرورية أيضا.. يقول: "ولعلي لا ابالغ اذا قلت أن هذه النكبة من وجهة النظر التاريخية الكلية – المقصود النظرة الماركسية للتاريخ – كانت ضرورية حتى نستطيع أن نعيد النظر في امورنا اعادة شاملة ثم يتابع] من واجبات المثقف أن يحاول القاء نظرة كلية على المجتمع لا من زاوية واحد كزاوية فلسطين على أهميتها" .. (نفس المصدر صفحة210) هذه العبارات واضحة الدلالة ، القصة ليست هي فلسطين لذلك فلا حديث عن النكبة. القضية هي قضية الثورة الاشتراكية. ومن هنا ينظر الشيوعيون في بلادنا للنكبة على أنها مجرد أحداث 5 يونيو.. بل وأحداث ضرورية اذ المهم أن تستمر الثورة.. والشيوعيون المصريون بالذات يقصدون من ذلك تحقيق عدة أهداف سواء في داخل مصر أو في الوطن العربي. وليس قصدنا هنا تحليل موقفهم فذلك سيأتي في القسم الثاني من "ما بعد النكبتين".

يعتقد بعض الاشتراكيين القوميين أن سيرهم فيه سيكون علامة "تميز" لهم عن الشيوعيين الرسميين – وكلاهما لن يكون سببا في انقاذه بل في التعجيل بنهايته.

وكما نبهت النكبة الاولى العرب على الخطر الذي يهدد وجودهم كشعب ففتحت عيونهم على حتمية "الوحدة العربية" فإن هذه النكبة الثانية تنبههم اليوم على الخطر الذي يهدد استمرارهم التاريخي كثقافة وتفتح عيونهم على حتمية "الحل الإسلامي".

وأن كل مكابرة أمام حتمية هذا الحل لن تكون اكثر من"عائق" مؤقت قد يؤخر الحل مرة أخرى ولكنه لا يستطيع استبداله.

لقد كان هذا الخطأ الجوهري هو الذي أخر حركة التقدم في نهضتنا الحديثة بالمقارنة بنهضة اليابان الحديثة. لقد أنهكت أمتنا وأهدرت طاقاتها وشتتت قواها في محاولات ايجاد "بديل" عن "الإسلام" بأيديولوجيات أخرى سواء التمست لدى الفكر اللبرالي الأوروبي منذ القرن الماضي وحتى منتصف هذا القرن أول لدى الفكر الاشتراكي الأوروبي منذ الأربعينات الى اليوم. وقد فرضت هذه المحاولات نفسها إما في ظل النظام الاستعماري المسيطر وحمايته – في طور الثورة الوطنية على الاستعمار – أو بقوة الارهاب البوليسي في ظل النظم الثورية العسكرية – في طور الثورة الاجتماعية على التخلف – وجاءت النكبة الأخيرة لتثبت على نحو قاطع بأن كل محاولة للتعويق هي محاولة للتأخير لا أكثر ولا أقل . وكما كشفت النكبة الأولى للعرب جميعا عن "المضمون العربي" و"الابعاد العربية" لقضيتنا فلسطين وأبطلت أسطورة الكيانات القائمة على فكرة "الوطنية المحلية" أو "الإقليمية" التي تكرس واقع التجزئة. كذلك فقد كشفت هذه النكبة الثانية للمسلمين جميعا عن "المضمون الإسلامي" و"الابعاد الإسلامية" لقضيتنا فلسطين فأبطلت بذلك أسطورة "الانغلاق القومي" و "العلمانية " معا واثبتت بما لا يقبل الشك أن مصير المسلمين السياسي – مصير العالم الإسلامي – مرتبط بمصير العرب السياسي – مصير العالم العربي – وأن مصيرهم الثقافي مرتبط بمصير الثقافة الإسلامية وأن مستقبلهم جميعا كأمة ذات رسالة وكثقافة ذات أصالة مرتبط بمستقبل الإسلام.

ان وحدة العقيدة ووحدة التاريخ ووحدة دار الإسلام وكذلك وحدة المشكلة تفرض "وحدة المصير" لقد كشفت النكبة الأولى " وحدة المصير العربي" وكشفت الثانية "وحدة المصير الإسلامي".

ان وحدة المصير تفرض وحدة الهدف ووحدة البرنامج ووحدة العمل ، وهذا يعني وحدة الحركة الإسلامية.

لقد اثبتت النكبتان ان الوجود اليهودي الصهيوني هو صورة التحدي الغربي للاسلام كأمة وكثقافة وقد كان الإسلام وسيظل قادرا على رد التحدي.

على أن هناك عدة أمور جديرة بالملاحظة:

أولها: أن فشل اللبرالية والاشتراكية ونظمهما في العالم العربي لم يكن بنفس الشدة في جميع أجزاء الوطن العربي فما تزال هناك بعض الأوضاع اللبرالية الزائفة تحاول تجنب النهاية المحتومة عن طريق "التلاؤم السريع" مع الظروف الجديدة. وهناك أوضاع تقليدية مشوهة يناقض مجرد استمرارها طبائع الأشياء. وهناك أقطار انبثقت منها حركة البعث والنهضة ولكنها – رغم جميع التجارب – ما تزال مترددة تجاه الاختيار الكامل للحل الإسلامي – وقد استنتج الكثيرون من سدنة هذه الأوضاع وبصورة اوتوماتيكية أن مجرد فشل ما سمي بالنظم الثورية يعني انتصار نظمها وثباتها هي أو صحة اتجاهها وهذا خطأ فادح – فلئن اثبتت النكبة الأخيرة فشل ما سمي بالنظم الثورية ، فإن النكبة الاولى قد اثبتت فشل النظم الديمقراطية الزائفة التي قامت هذه الاخيرة على انقاضها.. واذا كان سقوطها قد تأخر فلأسباب خاصة بكل واحدة منها.. ومعنى النكبتين كليهما هو هذا أما الحل الإسلامي أو "السقوط" ذلك هو قدرهما المشترك اليوم.

ثانيهما : أن فشل اللبرالية والاشتراكية في العالم العربي ليس أمرا مقتصرا عليه وحده. وهو لا يعني انهما نجحتا أو أن هناك فرصة لنجاحهما في بلد اسلامي آخر.. فهذه المغالطة لا يمكن ردها نظريا فحسب على اساس وحدة الحضارة ووحدة الصياغة التاريخية لهذه المجتمعات وبالتالي وحدة المشكلة ووحدة التحدي الغربي . بل ومن التأمل في الأوضاع السياسية والتيارات الثقافية في بقية أقطار العالم الإسلامي في نشوئها وخط تطورها في طور الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية على السواء.. واذا كانت أزمتها لم تنفجر على صورة التغيرات التي حدثت في العالم العربي والتي كانت أشبه بفصول درامية مذهلة لمأساة تاريخية فريدة.. ف إن السبب لا يرجع الى أنها لا تعاني أزمة حادة أو أن أزمتها لم تنفجر بصورة أو أخرى ، [6] بل يرجع لأن قضيتنا فلسطين لا يمكن أن تُقارن بأية مشكلة إسلامية أخرى.

---

[6] ان اللبرالية التركية ، تعاني النزع الأخير وقد بدت أزمة نظامها السياسي في انقلاب الجنرال جورسيل العسكري عام1960 وتفجرت تناقضاتها أمام الشعب التركي على أثر مشكلة قبرص. والانشقاق الاخير في حزب عصمت اينونو– 1967 – ليس الا علامة النهاية ، وازمة اللبرالية في باكستان بدأت منذ أزمة وضع الدستور وظهرت الى العيان يوم تسلم الجنرال أيوب خان السلطة– ولقد جاءت حرب كشمير عام 1965 بمثابة [تذكير] آخر لباكستان يعطيها فرصة أخرى لتبني الحل الإسلامي الذي كان المبرر الوحيد لقيامها-

وأمّا لبرالية الشاه!!؟ في إيران فقد أخّر سقوطها الجنرال زاهدي وحكمه الدموي الرهيب .. وهي اليوم تحاول التحايل على البقاء تحايل اليائس فيما يسمونه "الثورة من فوق" (1967)

أما اندونيسيا فقد وصلت إلى ما وصلنا نحن اليه الآن بانتهاء نظام سوكارنو .. ولكن تجربتها مع الماركسية والفكر الاشتراكي أكمل وأعمق من تجربتنا وأغنى بكثير من حيث مضمونها السياسي.

فالوجود اليهودي الصهيوني في فلسطيننا قلب العالم العربي الذي هو قلب العالم الإسلامي وتواته المغناطيسية هو وحده الذي يفسر ذلك. ان هذا الوجود يمثل أوج التحدي الغربي السياسي والثقافي للعالم الإسلامي والحضارة الإسلامية. فمكانة فلسطيننا من العالم العربي ومكانة العالم العربي من العالم الإسلامي وطبيعة التحدي وشدته وعنفه هو الذي عجل حركة الأحداث في الوطن العربي وهو في نفس الوقت السبب الرئيسي الذي يجعل حقنا بفلسطين – لا حقوقنا في فلسطين – مجرد قضية إسلامية فحسب بل قضية المسلمين والاسلام الأولى في العصر الحديث. [7]

فنحن حين نتحدث عن حتمية الحل الإسلامي فلِننا نعني المجتمع الإسلامي كله وتجربة العالم العربي في خطوطها العريضة ليست الا "نموذجا" فحسب لما يحدث في كل قطر من اقطار العالم الإسلامي [8] **مع بعض الفروق التي يمكن تعليلها بأسباب محلية أوردها الى نوع التحدي وعمق التجربة في كل منها.**

ثالثهما: ان فشل تجربة اللبرالية العربية وديمقراطياتها وفشل تجربة الاشتراكية العربية ونظمها الثورية – وما يوازي ذلك في اكثر بلدان العالم الإسلامي – لا يعطينا بحال من الأحوال الحق في الحكم سلبا أو ايجابا على اللبرالية أو الاشتراكية الأوروبيتين أو على الدور التاريخي الذي لعبته اللبرالية في القرن الماضي في مجتمع غرب أوروبا خاصة ، أو الدور الثاني الذي لعبته الاشتراكية في مجتمع شرقي أوروبا – وروسيا خاصة – في هذا القرن – وبالتالي فـإن فشلهما لا يعني بطلان ربط حركة التحرر القومي او الحرية الاقتصادية أو الديمقراطية أو التقدم العلمي والصناعي الذي ساد مجتمع اوروبا الغربية في القرن الماضي باللبرالية – سياسية كانت ام اقتصادية أم تربوية – ولا يعني ايضا بطلان ربط الماركسية اللينينية – كأحد تيارات الاشتراكية الاوروبية – بالتقدم الاجتماعي القائم على التقدم العلمي والصناعي في مجتمع شرق أوروبا وروسيا منه بوجه خاص كمحاولة لاستدراك تطورات الجناح الشرقي من اوروبا بالقياس لجناحها الغربي وهذا هو مغزى الثورة الروسية 1917 كله.

---

[7] نحن نعني ما نقول تماما. ففلسطين هي محك المستقبل للاسلام وللشعب العربي. والقضية ينبغي أن توضع على هذا النحو المسلمون و "الحركة الصهيونية" الشعب العربي والفرنجة الجدد . وهي تعني أما أن تدمر هذه العقيدة أو أن تبقى أما أن يحيا هذا الشعب أو أن يفنى.

[8] يطلق الاوروبيون بمعسكريهما اسم "الشرق الاوسط" على العالم الإسلامي حينما يتحدثون عن قضاياه المختلفة، وذلك لتفريغه من مضمونه الحقيقي – الثقافي والحضاري – والحقيقة ان المصطلح نفسه يمثل الروح الاستعماري والقارية في نظرة الأوروبي الى العالم الذي يعتبر أوروبا مركزا له. وقد نشأت التسمية من أيام الدولة العثمانية حيث اطلقت على المنطقة الممتدة من أفغانستان حتى ايران والتي كانت هي ميدان الصراع بين روسيا القيصرية وبريطانيا آنذاك.

ولا يعني اننا سنغلق باب الحوار مع الغرب أو اننا سنقطع الطريق – على ضوء هاتين التجربتين الفاشلتين – أمام محاولة فهم علمي دقيق وتقييم موضوعي صحيح لهاتين التجربتين الاوربيتين الهامتين لمجتمع صناعي نحن مقبلون عليه بالضرورة.

بل يعني: فشل "التقليد" في تجاوز " أزمة الحضارة الإسلامية" وضرورة "التركيب المبدع" القائم على "الوعي التاريخي" لـ"قيم التراث" وعلى ادراك علمي واقعي لمشكلة هذه الحضارة التي تشكل جوهر التحدي الحديث.

ويعني: فشل "الشكلية" في مواجهة مشكلة هذه الحضارة الاساسية التي هي في نفس الوقت جوهر ازمتها الا وهي "مشكلة التخلف" الناجم عن عدم مواكبة حركة التقدم العلمي والصناعي الاوروبيين الحديثين وعقلانية التنظيم الاجتماعي المقترنة بهما.

ويعني أخيرا: القضاء على جميع السلبيات – لدى الفرد ولدى المجتمع – التي كانت تعيق حركة النهضة او البعث الإسلامي. سواء في جانبها السياسي المتمثل بالثورة على الاستعمار وتحقيق الاستقلال الوطني، أو في جانبها الاجتماعي الممثل بالثورة على التخلف وتحقيق التقدم الاجتماعي بحيث غدا بالامكان اليوم فتح باب حوار متكافئ مع الثقافة الغربية تدرس فيه ظاهرة الرأسمالية وظاهرة الماركسية دراسة نقدية تستند الى الدراسات الأوربية المعاصرة من جهة وتخضع لمعايير صارمة مستمدة من تراثنا الإسلامي من جهة أخرى: لقد اصبح بامكاننا نحن شباب الجيل الإسلامي المثقف المعاصر أن نشق طريقنا لمستقبل نصنعه بأيدينا ونصنعه نحن وحدنا ونصنعه نحن كلنا – رائدنا ايمان أساسه المعرفة وعمل اساسه العلم ومسؤولية اساسها الوعي السياسي لواقع عصرنا والالتزام الخلقي بمعايير اسلامنا ولقد تم القضاء على هذه السلبيات من خلال عمليتي التصفية التاليتين اللتين تعتبران نتيجتين مباشرتين لفشل تلك التجربتين.

اولاهما : عملية تصفية نفسية لدى الفرد حررت المثقف المسلم من "عقدة النقص" تجاه الثقافة الغربية الحديثة في صورتيها المتقابلتين اللتين واجههما في احتكاكه الجديد مع الغرب في صورتي الفكر اللبرالي والفكر الاشتراكي بحيث جعلت تجاوزهما اليوم أمرا ممكنا. فهي اذا ازالت العوائق النفسية من أمامه فتحت الطريق له أمام محاولة تركيب مبدع وقد بدأت عملية التصفية النفسية هذه في شخصية الإمام محمد عبده ورجال المدرسة السلفية من بعده ومن تابعهم – وما يوازي ذلك في البلاد الإسلامي الأخرى – وذلك كتيار ثقافي دفاعي يتحدى دعاوى الليبرالية العربية. ثم كحركة اجتماعية في الحركة الإسلامية في مصر التي انطلقت من الجامعات الحديثة ومن المصانع والحقول تتحدى واقع اللبرالية المصرية ونظامها السياسي

والاقتصادي حتى الأربعينات. وكاصرار على الحل الإسلامي طوال تجارب الحكم المصري خلال الخمسينات. وكأول صورة للتحدي الإسلامي لما سمي بالاشتراكية العربية في الستينات خاصة ، والذي تجاوز حدود تنظيم معين ليصبح تيارا اسلاميا شاملا ما يزال تحديده قائما الى اليوم.

وانه ما من أحد يمثل انتهاء عملية التصفية النفسية وصفاء الشخصية الإسلامية المستعلية بالاسلام على كل ما سواه مثل شخصية الشهيد المصري سيد قطب. [9] وما من أحد يمثل أولى محاولات التركيب المبدع مثل المفكر الجزائري مالك بن نبي. واذا كان موقف الشهيد هو "الشرط النفسي" الضرورة لإمكانية إجراء عملية التركيب ألا وهو "التميز" – أو اكتشاف الذات. – فإن موقف المفكر الجزائري مالك بن نبي يمثل "الشرط الموضوعي" لكيفية اجراء تلك العملية ألا وهو "وعي المشكلة الاجتماعية" ووضعها وضعا صحيحا وبحثها بحثا تفصيليا. وإذا كان الأول قد ألح على جانب العقيدة في تربية الجيل القرآني الفريد – كما اسماه – فلعلمه بأن شعلة الإيمان هي الأساس في تجاوز الأزمة، لأنه هو وحده الذي يجعل منها قضية ، فحركة النهضة الإسلامية الحقيقية لا يمكن ان تبدأ الا ببعث الروح الإسلامي وبميلاد الإنسان المسلم ميلاداً جديداً يعبر عنه بالحكم الشخصي التالي: انني لا أرى من حولي الا هشيما لذلك لابد من أن يتغير كل شئ. هذا التغيير النفسي في الفرد هو أساس التغيير الاجتماعي. بعبارة أخرى ، ما لم " أتجدد" أنا فلن استطيع أن " أجدد" شيئا، وما لم "تتجدد" نحن فلن نستطيع "تجديد" المجتمع ، لأن كل تغيير لابد وأن يبدأ من الإنسان.

وهذا هو عين ما فهمه مالك بن نبي من الآية الكريمة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" .. وهو المغزى الحقيقي لمفهومه عن "القابلية للاستعمار" ثم راح مالك بن نبي – من خلال مفهومه عن الحضارة – يبرز أهمية الجانب التكنيك ي الاجتماعي Social Technique من المشكلة ويلح عليه. لكننا لا نعتقد أن صاحب "الظاهرة القرآنية" قد حصرها في هذا الجانب وحده. وفي الحقيقة أن كلا منهما يعكس تجربة مجتمعة فيلح على أحد الجانبين دون الآخر ولذا فنحن نعتبرهما مكملين متممين رغم أن المرء لا يمكن أن يشك أبدا في "الشرط النفسي" وهو موقف الشهيد، وأن كان من الممكن أن يقف موقفا نقديا من كيفية تحقيق هذا الشرط. ولعل كلا الرجلين يعكس جناح المشرق والمغرب في لقاء فهم موحد لمهمة الحركة الاسلامية، هي أحوج ما تكون اليه في مرحلتها المعاصرة.

ثانيهما: عملية تصفية نفسية تاريخية في المجتمع الإسلامي حررته – إلى حدٍ بعيد – من "القابلية للاستعمار" الغربي بشقيه فجعلت المذاهب الاجتماعية اللبرالية والاشتراكية و أنظمتها

---

9 إن تطور حياة الشهيد تمثل أدوار هذه التصفية تمثيلا صحيحا.

السياسية البرلمانية والثورية موضع نقد شديد بحيث غدا تجاوزهما اليوم وايجاد "صيغة سياسية إسلامية جديدة" تحدد معالم نظامنا الإسلامي السياسي تحديدا كاملا أمرا ممكنا وواجبا. وقد بدأت هذه التصفية التاريخية في الثورات الوطنية التي قادت نضالها الشعوب المسلمة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ابتداء من ثورة الريف في المغرب الى ثورة جاوا في القطب الآخر لمحور العالم الإسلامي والتي توجتها دونما شك ثورة الجزائر الأخيرة التي لم تُدرَس بعد كظاهرة مستقلة لتجربة الإسلام التاريخية هناك بقدر ما دُرسَت – من الأوربيين غالبا – في محاولات لاستيعابها ضمن تفسير معين مسبق.[10]

إن كلتا التصفيتين قد فتح أمامنا الإمكانية لمحاولة "تركيب مبدع" في الثقافة يكون أساس بعث اسلامي حقيقي اصيل يحررنا من السكونية و "فوضى المفاهيم" على صعيد الفكر النظري، ومن "الميوعة" أو "الجمود" في معايير المنطق العملي لقيمنا الأخلاقية والجمالية ، ليكون ذلك أساس تربية إسلامية حديثة سوية للفرد واساس ثقافة إسلامية منفتحة للمجتمع بحيث يغدو بناء شبكة علاقات اجتماعية سليمة أمرا ممكنا بعدما خربنا وخربت التجارب كل شئ. وسيكون ذلك ممكنا بقدر ما ندرك ونعى "مغزى" تلك التجربتين – اللبرالية والاشتراكية – في تاريخ نهضتنا الحديثة وبقدر ما نتجنب الأخطاء الأساسية التي كانت سبب أزمتهما وفشلهما معا.

فما هي هذه الأخطاء؟

1 – لم تدرك الحركتان اللبرالية والاشتراكية العربيتان جوهر الفكر الغربي الحديث ولا جوهر العصر الأوروبي الحديث ونتيجة لذلك فهي لم تدرك جوهر التحدي الغربي الحديث لحضارتنا. فجوهر الفكر الأوروبي الحديث يلتمس في الأساس الفلسفي الذي نهض عليه علم الطبيعة الحديث والذي قامت عليه الصناعة الحديثة وجوهر العصر الأوروبي الحديث هو العلم والصناعة. فهذا العصر الأوروبي الحديث مهما حاول المفكرون فيه أن يدركوا كنهه فلن يصلوا الا الى هذه النتيجة: انه عصر العلم والصناعة الحديثين .وإذا كان هذا هو جوهر هذا العصر فهو في نفس الوقت جوهر التحدي الغربي الحديث لنا. بخلاف تحدي الفلسفة اليونانية لنا في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي. أو بعبارة أخرى أن العلم الحديث والصناعة الحديثة – لا العقيدة ولا الفن – هما القضية في التحدي. فـ إذا كان الأمر كذلك فـإن جوهر

---

[10] فلم يعد هناك عذر لمثقف مسلم بعد اليوم أن يطالع كتابا أوروبيا "مفتونا" بل "دارسا" و"ناقدا" ، ولا يقف امام لوحة لا يفهمها "معجبا" بل " متأملا" ، ولا أن يقف أمام آلة "مبهورا" بل "متعلما" و "مسيطرا" ولا أن يتصرف أمام أوروبي "مرتبكا" بل "واثقا" و "معللا" وربما يصبح يوما ما "معلما" او كما يريده القرآن الكريم "شاهدا" كذلك لم يعد هناك عذر أمام المجتمع الإسلامي بعد التصفية التاريخية أن يظل "مساحة بيضاء" في الصراع الفكري ، أو "منطقة فراغ" في الصراع السياسي، أو "معمل تجارب" للانظمة الاجتماعية المتنازعة. بل لابد من فكر اسلامي مبدع و "حركة إسلامية حية" و"حل اسلامي نهائي".

مشكلتنا هو "التخلف" المستند الى هذا الاعتبار ، والبديل الحتمي له هو "التقدم " [11] المستند الى العلم والصناعة وعقلانية التنظيم المرتبطة بهما. هذا هو مفتاح النهضة الحقيقية. وقد قلت "بهذا الاعتبار" لأن التقدم المرتبط بالعلم والصناعة يتصل بالنظام العقلاني من الحضارة الأوربية فحسب ولا يمس نظام قيمنا الأخلاقية والجمالية . ولا النظام العقائدي أو الأيديولوجي. تلك هي المشكلة. أن التحدي الغربي لم يكن تحديا للاسلام كعقيدة ولا كنظام أخلاقي رغم السكونية التي اتصف بها الفكر الإسلامي في مرحلة الحضارة التي حصل فيها الاحتكاك الجديد مع الغرب ورغم "التحجر" في معايير تقييمنا الخلقي ذلك أن صمود العقيدة الإسلامية قرون الاستعمار كلها لكل انواع التدمير والتخريب من حضارة ذات جهاز فني دقيق لهو أصدق دليل على أن الحقيقة هي رصيدها وأن الفطرة الانسانية لا تتلاءم مع سواها. وثورة المسلمين هي اسطع دليل على القوة الاخلاقية الكامنة فيهم. وثورة الجزائر وحدها دليل واقعي ملموس على أن الروح الإسلامي لا يقهر.

وخطأ اللبرالية والاشتراكية هو أنها نقلت التحدي من مجاله الحقيقي الى مجال آخر ، من مجال العلم الى مجال العقيدة ومن مجال الصناعة الى مجال الفن والأدب بحيث التقت في النهاية مع التيار المعارض للنهضة – وللثورة أيضا. وهو بالضبط ما كان ومازال يريده الغرب. ولا نستمد ذلك من سياسته التعليمية تجاهنا في عصر الحكم الأجنبي فحسب بل من دليل حسي واقعي هو قيام الوطن القومي اليهودي على أرضنا الذي يمثل اليوم أوج التحدي الغربي السياسي والثقافي [12] معا. وسنتطرق لهذا كله عند الحديث عن ظاهرة اللاسامية " وعن التعايش الثقافي". وليس ادل على مخالفتهما لتيار النهضة أن تدعو اللبرالية الى العقل في طور الثورة الوطنية التي كنا نحتاج فيها الى الثورة حيث كان هدفنا الحرية، وان تدعونا الاشتراكية الى الثورة في طور البناء الاجتماعي الذي نحتاج فيه الى العقل حيث أن هدفنا التقدم. ولاشك أبدا في أن الحرية كانت تحتاج الى "عقلية ثورة" ولا شك أبدا في أن التقدم يحتاج الى "ثورية عقلانية". [13]

2 – إن عدم ادراكهما لجوهر التحدي الغربي الحديث القائم في مشكلة التخلف العلمي والصناعي وعقلانية التنظيم المقترنة بهما أو ما أطلقنا عليه اسم "النظام العقلاني" من الحضارة ونقلهما موضوعة الى نظام المفاهيم والقيم الأخلاقية والجمالية أي من مجال السلم

---

[11] يجب ان نحدد مفهوم "التخلف " أو " النمو" ومفهوم "الشعوب المتخلفة" أو "النامية" لأن الغرب يريد تعميمها واطلاقها وذلك تمشيا مع منطق الثقافة الاستعمارية الأوروبية كبديل لمفاهيم سابقة في الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة وغيرها نشأت في ظل نظرية العرقية في القرن الماضي. بينما هو مفهوم اقتصادي بحت يتصل بالبحث العلمي الحديث والصناعة الحديثة فقط.

[12] كانت الصهيونية تحتج بأن العرب متخلفون وأن رسالتها تمدينية . هذا من حيث الدعوى ، أما من حيث الواقع فلو كانت بلادنا تملك القوة المستندة الى العلم والصناعة لحال ذلك بينها وبين اختيارها وطنا لها في فلسطين.

[13] قارن : دكتور قسطنطين زريق: "معنى النكبة مجددا" بيروت1967 ، ص 42.

والصناعة الى مجال العقيدة والفن والأدب جعل تصورها لحركة النهضة مقلوبا مما أدى الى الوقوع في استدلال فاسد جعل احكامها على الحضارة الأوروبية نفسها معكوسة وهذا هو خطؤها الثاني.

فهي بدلا من أن تركز الاهتمام على العلوم الطبيعية والرياضية والتصنيع – أساس التقدم الأوروبي الحديث – راحت تهتم بالعلوم التاريخية والفنون. وهي بدلا من أن ترى في علم الطبيعة الحديث والصناعة الحديثة شطر التقدم – وأن تنظر الى المذاهب الاجتماعية التي رافقته كنتيجة له – راحت تجعل من "نقل" الاشكال الاجتماعية وتطبيقها في بلادنا شرط اً التقدم.

وقد قلت الاشكال الاجتماعية لا المذاهب الاجتماعية لأدل على أنها نظرت الى تلك النتائج لا كمجرد "ظواهر" بل كـ"بدائه" أي نظرة ساكنة جعلتها تصبغ عليها صفة التعميم والاطلاق. لذلك فهي لم تر المشكلة في الإنسان بل في النظام، ولم يشغلها البحث في المذهب بل "نقل" صورة وقوالبه. تلك هي مأساة العقلية الشكلية التي سيطرت عليها في فهم مشكلة حضارتنا.

بتعبير أكثر وضوحا أنها بدلا من أن تحاول "فهم" التطورات الاجتماعية التي أدت الى تطبيقات علم الطبيعة الحديث في الصناعة في المجتمع الأوروبي أو فهم تفسيرات الظواهر الاجتماعية التي نشأت عن ذلك – كما فعل مفكرو الغرب بعد هيجل الى نيتشة والى اليوم – راحت تأخذ أحد التفسيرات لتلك الظواهر فتجعل منها "مُسَلّمَة" وتأخذ احدى "صيغ" التطور الاجتماعية – أي احد النظم الاجتماعية – فتجعلها نموذجا لابد وأن يتكرر كما فعلت اللبرالية في دعاويها المختلفة للمذهب الحر والديمقراطية.. الخ .. وبدلا من أن تحكم على التطورات الاجتماعية الأوروبية التي رافقت ظاهرة الرأسمالية وأعقبتها ، راحت تجعل من تحول بنى المجتمع الاوروبي "آلية التطور" على الاطلاق. ومن أحد تفسيراتها – أي ظاهرة الرأسمالية الأوربية – "علم التكنيك الاجتماعي" ومن تكرار تلك التجربة " حتمية تاريخية" .. ! كما يفعل الاشتراكيون الماركسيون اليوم – فهي لم تنظر الى مجموعة تلك الظواهر كـ"تجربة أوروبية" في مجرى التاريخ الأوروبي بل راحت تعزلها من تيار التاريخ وتجمدها – وهو أمر يناقض جوهر الماركسية نفسها – وتعلقها في الهواء .. لتجعل من "فلسفة التاريخ" تلك لاهوتا جديداً لابد من الايمان به وبطقوسه أيضاً.[14] وهي بذلك أضاعت حتى فرصة الاستفادة من "منطق البحث" ومنهجه في العلوم الانسانية الأوربية أيضا.

---

[14] هكذا غدت الرأسمالية هي "الخطيئة" و"البروليتاريا" هي " الشعب المختار" والحزب هو "المخلص" ، و"الثورة" هي "الفداء"، و"الشيوعية" هي "مملكة السماء" و"المحترفون الثوريون" الذين "يستشفون" أعمق أعماق "الطبقة الكادحة" ويمثلون "الوعي الصحيح" للـ"كادحين" هم " الكهنة " الجدد الذين يتلقون "الاسرار الحقيقية" من خلال "رواهم" ويذيعوها على "المؤمنون" . وأخرويات هذه العقيدة الجديدة" ليست " ميتافيزيقية" بل هي أخرويات علمية فهي "اشتراكية علمية" . . أما الطقوس والابتهالات فيتلمسها هؤلاء في نظرية وتكتيك الحزب عند لينين. (تراجع في هذا الصدد

فما جلبناه للمسلم المثقف المتلهف الى المعرفة المتحرق الى النهضة لم يكن دراسات أو "تأملات" تسهم في "تحريك السواكن" [15] بقدر ما جلبت له "عقائد جديدة" تتطلب التسليم والايمان والتصديق.

وهي بذلك كله لم تكتشف عن خطئها في فهم مشكلة الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي بل وعن خطأ أفدح منه في فهم الإنسان الأوروبي ومجتمعه أيضا. ودلت بكليهما على تهافت نظرتها الى الإنسان عامة ، ذلك أن الإنسان طبيعة وتاريخ كائن حي وكائن اجتماعي ايضا ، ذو عقل ولكن ذو ميراث أيضا، فرد لكنه فرد من أمة بالذات في مجتمع بالذات ذو ثقافة خاصة لحضارة معينة. فالانسان الاوروبي " ليس هو الإنسان" على الاطلاق. و"ما هو أوروبي" ليس مساويا لـ"ما هو طبيعي" لأن الأوروبيين ليسوا هم وحدهم "البشرية " وأوروبا ليست هي "العالم". وتاريخها هو تاريخها وحدها، وتفسير تطوراته ومصطلحات هذا التفسير خاص بها وحدها.

واذا كان "علم الطبيعة الحديث" أوروبيا ف إن الطبيعة نفسها ليست حديثة وليست أوروبية، وكذلك الحرية والعدالة الانسانية.. فاللبرالية الأوروبية ليست هي "علم الحرية"، والماركسية ليست هي "علم العدالة" بل هما بالضبط تفسيرات لظاهرتين اجتماعيتين في التطور التاريخي للمجتمع الأوروبي الحديث في القرن الماضي والقرن الحالي [16]، وللأوروبيين الحق في أن يروا في أحد نماذج تاريخهم صورة الإنسان الأكمل فيجعلوا منها صورة مطلقة أو يروا في تفسير ظاهرة من ظواهر مجتمعهم "التفسير الصحيح" فيعطوه صفة الشمول – وهو ما كان يحصل الى عهد قريب جدا – ولكن ذلك يبقى رأيهم.

ولهم أيضا أن ينظروا الى تاريخ أوروبا على أنه تاريخ العالم " و"تفسير" حوادثه على أنه قابل للتعميم [17] ولكن هذا ليس هو الواقع .والحقيقة انه ما من أحد ادرك فداحة الخطأ في هذه النظرة مثل المفكرين الأوربيين اليوم وادركوا معها كم جرت عليهم المدرسة التاريخية

دراسات كارل لوفيت خاصة كتابه "من هيجل الى نيتشة" و"تاريخ العالم والأحداث المقدسة". ولقد أعطى المفكر الماركسي أرنست بلوخ في كتابه "مبدأ الأمل" دليلا آخرا على الاساس اللاهوتي لمفاهيم فلسفة التاريخ الماركسية . لذلك فليس عجيبا أن يستفيد من هذا المؤلف اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت على السواء. والجدير بالذكر أن لوفيت وبلوخ يهوديان.).

[15] هذا التعبير هو للكاتب التونسي محجوب بن ميلاد في كتابه "الفكر الإسلامي".

[16] إن هذا لا يعني "الانغلاق" والرفض – كما يتهم اللبراليون بالامس والاشتراكيون اليوم الاتجاه الإسلامي – بل يعني بالضبط توفير الشروط الموضوعية للانفتاح والحوار وبالتالي لامكانية "تبادل ثقافي" مجد وفعال. أما موقف النقل والتقليد والجمود – موقفهم – فهو وحده الذي حال وسيحول أيضا دون ذلك كما سنرى فيما بعد.

[17] لقد أعطيت قيم الأفكار المرتبطة بالنظام العقلاني للأفكار المرتبطة بنظام القيم الأخلاقية والجمالية من الحضارة الأوروبية. لقد طبقت الأحكام المتصلة بالعلم والصناعة على المفاهيم والقيم، بحيث أصبحت خصائص الأحكام العلمية– العمومية والشمول – خصائص للاحكام الأخلاقية والجمالية.

Historismus من أخطاء حين فهمت الإنسان "ككائن تاريخي" ومن خلال التراث الغربي وحده.

ولست اشك في أن هذه النقطة بالذات ستكون مفتاح كل نقد اسلامي بناء للعلوم الانسانية الأوروبية في المستقبل. [18]

وباختصار فإن اللبراليين والاشتراكيين بدلا من أن يهتموا بـ"علم الطبيعة" و"التكنولوجيا" ، أخذوا "فلسفة التاريخ" فجعلوها "علما" وأخذوا "فلسفة الاجتماع" فجعلوها "تكنولوجيا" وبصورة أدق أخذوا احدى فلسفات التاريخ وأحد مذاهب علم الاجتماع.

ولعل هذا هو ما يفسر لنا هذا "الجمود" و"التحجر" العجيب في الفكر العربي اليوم . [19] **ويفسر لنا في نفس الوقت "الوصاية الفكرية" التي تمارسها الأنظمة المستبدة – الثورية – فيه. فما لم يخلع الإنسان العربي عن نفسه هذه الوصاية ويثق بعقله وتراثه ، فإنه من المستحيل أن نخرج من حالة "العقم" والفوضى العقلية القائمة اليوم. وأن نفوز بحرية اجتماعية حسية لا تجريدية.**

3 – لئن كان الخطآن الأولان يتصلان بعدم ادراك "الشرط الموضوعي" لحركة النهضة" ف إن الخطأ الثالث يتمثل في عدم ادراك " الشرط النفسي" لها.

---

[18] لقد حولت النصرانية الفكر الأوروبي عن "عالم الطبيعة" – كما كانت الحال عند اليونان – الى "عالم الإنسان". وبذلك تحول مفهوم "الطبيعة الانسانية" – الفطرة – الى "وجود تاريخي" . وقد كان هذا التحول الخطير نتيجة لـ"تنصير" المفاهيم اليونانية . وقد كان لذلك آثاره البعيدة في الفكر الأوروبي يهمنا منها هنا ما يلي:

ان الغربيين أصبحوا يعينون خصائص الإنسان من خلال التاريخ ويحاولون فهمه من خلال هذه الخصائص ، ولا يفسرون تاريخ الإنسان من خلال خصائصه الطبيعية.وهناك فرق كبير بين أن نعتبر الإنسان جزءا من الطبيعة فنسلم بأن له "خصائص طبيعية ثابتة" خلال كل أطوار التاريخ فنعين على أساسها مفهومنا عنه ، وبين أن نستخلص للانسان من خلال أطوار تاريخه " خصائص معينة" فنجعلها " خصائص طبيعية" له.

وزاد الطين بلة ان هذه الخصائص استخلصها الغربيون من التاريخ الغربي وحده. والمعايير التي استندوا اليها في ذلك معايير خاصة بحضارتهم سواء الاغريقية أو اللاتينية المسيحية او الحديثة فهي معايير خاصة بقارة أو حضارة معينة. لقد كانت كلمة "عالم" الى وقت قريب جدا مرادفة لديهم في المصطلح التاريخي بكلمة "اوروبا" أو "الغرب" ، وكانوا يتحدثون عن تاريخ العالم بهذه الصفات. على أن كلمة "تاريخ العالم" نفسها تعبير خاطئ لأن العالم ليس له تاريخ بل هناك تاريخ الإنسان في العالم.

حين انكرت "الطبيعة الثابتة" للانسان فقد اصبح "صنعة" سهلا ، خاصة على أثر انجازات العلم الحديث. وهكذا بدأت بعض المذاهب التربوية تنكر الفطرة وتتحدث عن "صنع الإنسان" .. وأصبح أهداف التوراة "تعبير الإنسان".. "صنع انسان جديد".. وحينما أصبح "تاريخ العالم" هو "تاريخ الإنسان" فقد غدت حتمية الطبيعة حتمية تاريخية. وحينما كان المقصود عندهم بتاريخ الإنسان "تاريخ الإنسان الأوروبي" فقد أصبحت حتمية التاريخ تعنى في الواقع " تغريبا بالقوة" أي بقوة التفوق العلمي للغرب بما فيه القوة المادية.

لقد كان هذا هو أحد الأسباب العميقة في رأيي لفشل كل محاولات المذاهب الانسانية في الغرب ، بل انه السبب الذي يحول بين الفكر الاوروبي المعاصر وبين قيام حركة انسانية حقيقية لا مذهب انساني جديد.

[19] ومع أن صفة "العطالة" من مفهوم المادة في علم الفيزياء– فيزياء نيوتن – قد أصبحت موضع شكل في الفيزياء الذرية اليوم.. وبدأت صنعة "الديناميكية" تصير هي صفة الفكر الانساني الأصيلة، فإن قانون العطالة ما يزال سارياً على تفكير الاشتراكيين الماركسيين في بلادنا ، بل هم يريدون تطبيقه علينا أيضا. بل هناك ما هو ادهى من ذلك أن التطورات الأخيرة في الفكر السوفيتي تدل أن التكنولوجيا نفسها ستكسر جهود الأيدلوجيا.. أما جمودهم الأيديولوجي فقد استحال الى ضرب من التحجر.

ولئن كان ادراك جوهر التحدي الغربي الحديث لنا ادراكا صحيحا بمعرفة جوهر الفكر الغربي الحديث وأصوله يشكل "الشرط الموضوعي" لمعرفة جوهر الأزمة وبالتالي معرفة مفتاح النهضة، فإن اكتشاف التراث وبعث التراث واحياء المفاهيم والقيم التراثية لنا هو "الشرط النفسي" لتجاوز الأزمة وتحقيق النهضة اذ لا يمكن ان نجدد شيئا ما لم يتجدد الإنسان نفسه. والإنسان لا يمكن أن يتجدد بالعلم والصناعة ونظام الحكم، بل بالبعث الروحي – وبالحقيقة – القيمة، أي بتجديد منظومة المفاهيم والقيم الأخلاقية والجمالية.

وعدم ادراك هذا الشرط النفسي حال بيننا وبين اجراء "عملية التبادل" الحضاري مع الغرب ايضا. فلا نحن عرفنا أصولنا ولا أصول الفكر الغربي، وحركة الترجمة اصدق دليل على ذلك.

بتعبير آخر.. لقد كانت نظرتنا الساكنة الى الأفكار الأوروبية وإعطاؤنا لها قيما رياضية مطلقة حائلا بيننا وبين فهم قيمها الاجتماعية حتى لكأن الحقيقة عندنا تبدأ منذ أن نلتفت اليها.. وكأن لنا أعين ميدوزا بحيث لا يسقط بصرنا على الأفكار حتى تتحجر .. هذه النظرة الساكنة جعلتنا نغفل أهمية التركيب النفسي في ظاهرة الثقافة ، وبالتالي نغفل عن تعيين الشرط النفسي "لعملية التبادل الحضاري".

وأعنى بذلك أننا أغفلنا التفرقة الجوهرية بين "القيم الذاتية" و"القيم التاريخية" لها . أو بين "القيم المعرفية" و"القيم التراثية" أو بين قيم الأفكار المجردة وبين قيم الأفكار وهي تؤدي وظيفتها الاجتماعية من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية لمجتمع ما.

هذه القضية موضوع قائم بذاته يخرج عن نطاق بحثنا هذا ، لذلك لابد لنا من أن نجتزئه فنتحدث عن بعض الفروق:

القيمة الذاتية للفكرة هي قيمتها بما هي قوة، بما هي معرفة ، بما هي ثمرة ابداع العقل الانساني. وأما القيمة التاريخية للفكرة فهي قيمتها بما هي فعل ، بما هي تحقق اجتماعي مرتبط بثقافة بالذات لأمة بالذات ، لحضارة بالذات.

القيم التاريخية للافكار هي القيم التي تصلنا بطريق التراث، بواسطة التربية في مجتمع معين.. وهي التي تكون "الضمير الاجتماعي" للفرد وتولد فيه "الفعالية الاجتماعية" وتضبط " سلوكه الاجتماعي" و"الوعي التاريخي المشترك" لقيم هذه الأفكار هو ما نسميه بـ"الضمير الجمعي". وهو الذي يشكل الرابطة العضوية بين أفراد أمة من الأمم وعليه تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية، هو الذي يعطي لوجود الأمة مغزى، وهو الذي يقدم لبقائها ولاستمرارها كأمة وكثقافة تبريرا. هو حجتها أمام نفسها وأمام الأمم والثقافات الأخرى.

هذه القيم التاريخية للأفكار قيم تراثية، وهي تغنى كلما زاد الحوار الحي مع التراث شدة، وتشتد فعاليتها كلما توثقت الصلة بـ"مضمون" التراث وتجاوزت – عن طريق النقد – أشكاله وقوالبه. وكلما حصل ذلك أمكن للمرء أن يقع على "الخالد فيه" فيدرك بذلك مدى انفتاحه وشموله يشعر بالتالي بضرورة بقائه واستمراره كرصيد لخبرة أمته التاريخية يتمثل في الحكم التالي:

هذه القيم يجب أن تبقى ، أي يجب أن يتناقلها جيل عن جيل ، صيغة هذا الحكم هو جوهر القيم التراثية.

بذلك يتحول التراث من أن يكون " عبء الماضي" ليصبح "افق المستقبل" ويتحرر من قانون "الاكراه الاجتماعي" ليصبح ضربا من "الواجب الأخلاقي".

هذه القيم التاريخية تختلف عن القيم المعرفية بأن هذه الأخيرة قيم معللة مفسرة بينما القيم التراثية قيم فاعلة مغيرة. الأولى عامة بينما الثانية خاصة، الأولى نتعلمها والثانية نتنفسها، الأولى مرتبطة بالعلوم الطبيعية – وإلى قدر محدود أيضا – وبالصناعة ... أما هذه فبمجال العلوم الانسانية. لذلك فنحن لا يمكن أن نصدر على القانون العلمي أو على العملية الصناعية إلا حكما علميا منطقيا نعبر عنه في النهاية بخطأ أو صواب .. أما السلوك الانساني فلا يمكن أن تصدر عليه هذا الحكم – الا في ظل سلطة مطلقة!! – بل نحاول تفهُّمه ... والقيم التراثية هي التي تجعل عمل الإنسان مفهوما وتصرفه ذا مغزى. ولو كان التصرف الانساني ضربا من "التكنيك الفردي" أو كانت المواقف الاجتماعية ضربا من "التكنيك الجمعي" لبطل كل حديث عن الحرية وعن الإنسان.

وقد يحتج البعض بأن علم الطبيعة الحديث والصناعة الحديثة وعقلانية التنظيم المرافقة لهما قد قللت من أهمية هذه الفروق، وهذا وهم من الأوهام لأن العلم لا يمكن أن يرث التاريخ ، والتصنيع لا يمكن أن يحل المسائل الأخلاقية. وهذا الوهم قائم على الخلط بين مفهومي "تقني" و"عملي" بين النظام العقلاني للحضارة ونظام القيم الأخلاقية والجمالية وهذا ما كشفت عنه دراسات علم الإنسان المعاصر.

المهم هنا أن نؤكد أن عملية نقل الأفكار من منبتها التاريخي يجعلها تتجرد من قيمها التراثية فتصلنا "مجموعة معارف" لا يمكن أن تؤدي في طور حركة النهضة إلا إلى "التكديس" على صورة "سعة علم" أو إلى التشويه على صورة "تقليد مضحك". وبالتالي لا يمكن أن تؤدي نفس الوظيفة الاجتماعية التي أدتها في نطاق ثقافتها ومجتمعها ، أي لا يمكن أن ينشأ عنها ابتكار فردي ، ولا أن تولد فاعلية اجتماعية لأنها تفتقر الى الأساس النفسي لذلك. فضلا عن أن تكون أساسا للبعث الروحي شرط النهضة الأول. أي "الثورة داخل النفس".

وعلى العكس من ذلك فإن احياء القيم التراثية وتجديد مفاهيمها هو الذي يهيئ للبعث الروحي الذي يدفع بدوره للتغير الفردي والاجتماعي معا. انه لم يكن عبثا أن تنادي الطليعة الواعية لأي مجتمع يود النهضة أو التجديد بفكرة "العودة الى الأصول".

ان الغفلة عن هذه الحقيقة في حركة نهضتنا هو سبب أزمة اللبرالية العلمانية بالأمس والاشتراكية الثورية اليوم، وهو في نفس الوقت سبب مأساتهما ومأساة المثقف العربي معا.

لقد كنا نلقي بذورا لم نفحصها في تربة لم نحرثها في مناخ لم نعرف خصائصه.

لقد كنا كمن يزرع بذورا ميتة في تربة بكر، أو كمن يستنبت بذورا حية في تربة قاحلة. التربة هي المجتمع، والبذور هي الأفكار، وفحصها هو التفريق بين قيمها الذاتية والتاريخية، والحراثة هي معرفة الأزمة ، والمناخ هو الثقافة ، ومعرفة خصائصه هي ادراك الشروط النفسية لعملية التركيب.

لقد كنا نستورد ما يروق لنا من الأفكار فنلقيها في مجتمع لم تع القيم التراثية الحية في ثقافته وبالتالي لم ندرك الشرط النفسي للتغير الاجتماعي.

فنحن قبل أن تنظر في ظروف مجتمعنا كان فكرنا متعلقا بمجتمع آخر يثير اعجابنا. لقد نفضنا أيدنا من تراثنا قبل أن تقوم بحركة إحيائه. [20] أي قبل أن نكتشفه ونكتشف قيمه الحية الفاعلة في المجتمع ، وقبل أن نقيم تجارب تاريخية ذات أهمية كبرى كتجربتنا مع الثقافة اليونانية سابقا كضرب من التحدي الغربي الثقافي لنا. وتجربتنا مع الحروب الصليبية كنوع من التحدي الغربي السياسي لنا أيضا . فلم نقارن بين الحالين ونبين أوجه الشبه وأوجه الافتراق ، ولم ندركهما في اطار وحدة واستمرار تاريخنا وبالتالي لم نقيم مغزى هاتين التجربتين التاريخيتين الهامتين في معركة التحدي الغربي الحديث الثقافي منه المتمثل بالعلم الحديث والصناعة الحديثة. والسياسي المتمثل بالغزو الأوروبي الاستعماري. ثم مع الحركة الصهيونية والوجود الصهيوني اليهودي الذي يجسد التحديين معا. لقد كانت اللبرالية العلمانية ضد تيار النهضة في حين ظنت أنها باتجاهه، وكانت الاشتراكية الثورية ضد تيار التقدم في حين توهمت أنها في تياره . لقد الغتا كل امكانية للتركيب المبدع حين الغتا "اطروحة التراثية" وغفلتا عن الشرط النفسي له ايضا.

هذه هي الأخطاء الثلاثة الأساسية التي ارتكبتها اللبرالية العلمانية والاشتراكية الثورية، فعدم ادراك جوهر الأزمة وهو "الشرط الموضوعي" لمعرفة مفتاح النهضة وعدم التفريق بين قيم

---

[20] إن احياء التراث لا يكون فقط بـ "إعادة طبعه" بل بإعادة فهمه وتمثله واستيعابه وهضمه والتزام معاييره.

الأفكار وهو "الشرط النفسي" لتحقيق النهضة هو سبب أزمتهما ومشكلتهما معا. ووعي ذلك هو وعي "مغزى" هاتين التجربتين.

هذه الأخطاء الثلاثة هي التي يمكن أن تفسر لنا النتائج التي ترتبت على تلك التجربتين وأهمها:

- تعثر حركة النهضة.

- تناقضات المثقف العربي اليوم.

- تناقضات اللبرالية العلمانية بالأمس البعيد والاشتراكية الثورية اليوم - والتي أدت الى النكبتين...

1 - تعثر حركة النهضة:

إن مما يدعو الى الدهشة أن احتكاكنا بالغرب الحديث لم يأت متأخرا أبدا فلقد بدأ منذ نهاية القرن الثامن عشر في حملة نابليون (تموز 1798) على مصر. وبدأ التصنيع فيها واقتباس العلوم الأوروبية الحديثة منذ أيام محمد علي (1805-1848) وهو بالقياس الى مراحل التطور الصناعي الحديث في أوروبا نفسها غير متأخر أبداً... فالانقلاب الصناعي في أوروبا لم يبدأ فعلا إلا حوالي 1750 - وهو تقريبا نهاية مرحلة الصناعة اليدوية وبداية المرحلة الآلية - وقد استمرت هذه المرحلة حتى عام 1860 حيث بدأت طلائع المرحلة الميكانيكية التي ما تزال مستمرة الى اليوم - وإن تكن بداية مرحلة جديدة قد غدت واضحة. والوقت الذي بدأت فيه مصر هو تقريبا نفس الوقت الذي بدأت فيه روسيا أيضا. بل ان اليابان التي بدأت عام 1860 قد نجحت نهضتها. فلا يمكن رد تعثر حركة النهضة اذن لعامل الزمن أو لعامل خارجي مهما بلغت أهميته بل لابد من التماسها في فهمنا المغلوط لها ، والذي يتمثل في الأخطاء التي أشرنا اليها.[21]

2 - تناقضات المثقف العربي:

إن أهم التناقضات التي يعاني منها المثقف العربي اليوم ثلاثة:

---

[21] لعل خير ما يمثل مخالفة تيار اللبرالية العلمانية في الثقافة العربية لحركة النهضة هو القضايا التي أثارها والمشكلات التي شغلنا بها والانتاج الذي صدر عنه منذ فرح انطون الى لويس عوض – أو منذ محمد عبده إلى محمود شاكر ، سواء في مجال الفكر أو الأدب أو في مجال الفكر السياسي والحركات السياسية – حيث يدعو الأمر الى الأسف..

أما للدلالة على مدى مخالفة التيار الاشتراكي الثوري لحركة التقدم الحقيقية وفهمه المغلوط لها فانه من المستحسن– لمجرد الاشارة فحسب – ان نذكر بالاجابة التي اعطاها لينين مرة حين سئل عن الاشتراكية فقال: تعميم الكهرباء في الاتحاد السوفيتي.

1- تناقض بين "معرفته " العلمية و"خبرته" الاجتماعية، أو بين "علمه" و"مجتمعه" ، بين فكرة شلاء لا تنتج عملاء وخبرة عمياء لا يضبطها تنظير، بين فكرة لا تتحقق وبين جهد يذهب هدرا. هذا الموقف لابد وأن يؤدي الى "عقدة استعلاء" ... لم حصَّلتُ هذا العلم اذا كنت سأظل دونما تأثير؟ هذا التساؤل الممض أما أن يؤدي بدوره الى "اليأس": إن هذا المجتمع لا يمكن إصلاحه ، أو الى "اللامبلاة": ليكن ما يكون...[22]

والسبب في ذلك أن المعرفة العلمية تفقد قيمتها في مجتمع لم تتحدد بعد هويته ، أي لم يختر فلسفته الاجتماعية للمستقبل بحيث يمكن أن ينهض عليها نظام من المعايير الاجتماعية تتحدد على اساسه "القيمة الاجتماعية" للفكرة، وبالتالي تتعين "الوظيفة الاجتماعية" للفرد، فاذا افتقدنا هذا النظام فلإننا لا نعرف كيف نعطي الأفكار قيما اجتماعية صحيحة وبالتالي لا نعرف كيف نعين الوظيفة الاجتماعية للفرد، أي كيف نضعه في "مكانه الصحيح". وحين يرى المرء قيمة الفكرة مهدرة وحين لا يجد نفسه في المكان الصحيح ف إنه يصبح بالضرورة عاجزا عن أداء وظيفته الاجتماعية: كيف لي أن أمشي خطوات منتظمة قبل أن أعرف الاتجاه؟

2- أما التناقض الثاني فهو قائم في شعوره بالهوة السحيقة بين "ضميره" و"واقعة" ، بين مثله العليا التي تضرب جذورها التاريخية في أعماق نفسه وبين واقعه اللامعقول الذي يراه ويلمسه لمس اليد: كيف لى أن احقق مثلي على ضوء معطيات هذا الواقع، وكيف لي أن أغير هذا الواقع دون أن أضحى بمثلي؟

---

[22] **من نتائج هذه التناقضات الظواهر الثلاثة التالية التي يلاحظها المتتبع للانتاج الثقافي في بلادنا وهي الفصام الاجتماعي والازدواجية والتلفيق:**

الفصام الاجتماعي ونعني به وجود نوع من الانتاج الثقافي يعالج مشكلات لا صلة لها بواقعنا الاجتماعي مطلقا. حتى أن رجال الاختصاص العلمي لا يتحرون موضوعات دراستهم من مجتمعنا، هذه الظاهرة نجدها في التيار الإسلامي وتيار التغريب على السواء. ونجدها في تيار الثقافة الإسلامية في أدب الدفاع الذي شغله "ماضي الانا" أكثر من حاضره وفي تيار التغريب الذي يشغله "الآخر" أكثر مما تشغله الانا ماضيا وحاضراً. الأول يستمد رصيد حججه من القيمة التاريخية للتراث غالبا، والثاني من تقدم المجتمع الغربي دائما. وكلاهما يعتبران ردة فعل على الغزو الثقافي الغربي الحديث خاصة الاستشراق. الأولى سوية والثانية مرضية. ومن المفارقات في هذا الصدد أن نجد تيار التغريب يحتج على التيار الإسلامي بأنه يتجاهل الواقع مع انه هو نفسه ابعد منه فعلا عن مواجهة الواقع ومشكلاته الحقيقية. وقد روج تيار التغريب خدعة كبيرة حين جعل من مصطلح "الواقع" و"الواقعية" – وكذلك الموضوعي والموضوعية – كلمات سحرية تستخدم في الجدال ضد التيار الإسلامي عامة والقيم الاخلاقية الإسلامية بوجه خاص، وذلك كدليل اثبات صحة وجهة نظر ما عن طريق اضافة معنى زائد والصاقه الصاقا، لا كمفهوم مضبوط التحديد يشير الى منهج في التفكير يعوز فكرنا المعاصر اذا تأملنا خصائصه الأساسية الحالية. فمن الظواهر المألوفة اليوم ان الشاب المثقف المسلم الذي يعرض وجهة نظره معللة تعليلا كافيا لا يواجهه المستغربون بوجهة نظر نقدية مقابلة، بل بعباراتهم السحرية لنكن واقعيين.. الخ. وليس أدل على هذا الفصام الاجتماعي من موقف المثقفين العرب من نكبة فلسطيننا على صعيد الفكر والعلم والأدب والسياسة جميعا حيث لا بد من الإقرار بالفشل والاعتراف بالعار.

الازدواجية ونعني بها وجود اتجاهين متضاربين وتيارين متعارضين في ثقافتنا المعاصرة كل منهما يسير في اتجاه مخالف للآخر تماما تيار الثقافة الإسلامية الأصيل وتيار التغريب التقليدي .. سواء أكان ذلك في داخل المجتمع الواحد أو في حياة الفرد.

التلفيق ونعني به ضربا من الانتاج ليس له اتجاه واضح ولا يعبر عن فكر صارم أبدا. بل جل همه "الانتقاء" ووظيفته "الوساطة".. فهو يستعير من الأطراف المختلفة وجهات نظر متباينة يحاول أن يعقد بينها "مصالحة".. هذا الضرب من الانتاج الثقافي هو أخطر أنواع الانتاج في رأيي، لأنه أكثرها دلالة على انعدام المسؤولية.

3- والتناقض الثالث قائم بين ما يفرضه "منطق العلم" للعصر الذي يعيش فيه وما يفرضه "منطق التاريخ" الذي تمر أمته بأخطر طور من أطوارها فيه. فبينما يفرض عليه منطق العلم الحديث "التخصص اضيق" تفرض عليه المرحلة التاريخية لأمته "الاحاطة الشاملة" . فمن جهة تجده يلمس حاجته الى التعمق والبحث ويحس الحرقة لمعرفة أدق التفاصيل والجزئيات في فرع تخصصه ومن جهة أخرى يعتصره الألم اعتصارا على واقع أمته وثقافته المهددتين بمعركة بقاء أو فناء. أن هذا يجعله مضطرا لتلمس الأسباب خارج الأطر الضيقة للاختصاص هذان التياران يتجاذبانه عكسيا ويمزقانه تمزيقا. كيف لي أن أوفق بين واجب العلم وواجب التاريخ؟ [23]

هذه التناقضات الثلاثة بين العلم والمجتمع وبين المثال والواقع وبين روح العصر وطبيعة المهمة، كيف يمكن تجاوزها تجاوزا حقيقيا وسويا؟ [24] كيف لي أن أرفع الانقاض وأن اقيم البناء الجديد وانا في معركة؟

---

[23] من أمثلة التجاوز المرضي للتناقض الأول أن يلجأ المرء الى الانطواء على النفس انطواء ممضا يحرق فيه أعصابه على صورة انتحار بطئ أو أن يلتحق بحركة سياسية متطرفة أو أن يستسلم لطريقة صوفية. كل ذلك كمحاولة منه للثأر من المجتمع عن وعي أو عن غير وعي.
ومن أمثلة التجاوز المرضي للتناقض الثاني ان يتشبث المرء بمثله لدرجة التحجر أو أن يضحى بها لحد الميوعة، بدلا من الانفتاح على الواقع والتميز بالمثال . وهذا النموذج إذا في بلادنا مألوفا بحيث أصبحنا نرى علائق مشوهة بين المرء ومثله، وشخصية معقدة مضطربة لا تدل مواقفها على أصالة فكرية أو اخلاقية.
ومن أمثلة التجاوز المرضي للتناقض الثالث مختص في الفلسفة الغربية لا يعرف من تراثنا الا أقل القليل يخوض في مسائل قرآنية فيسقط تجربة أوروبية معاصرة على احدى تلك المسائل فيخرج لنا بما أسماه "مأساة ابليس في القرآن".. وعالم جليل متمكن من التراث ، لكنه لا يعرف عن الفكر الغربي الا العموميات فضلا عن الابحاث البيولوجية المعاصرة يكتب لنا في مذهب داروين.. فالأول يشعرنا بمغالطة عجيبة انه مشغول بمعالجة مشكلة من مشكلات التراث ، وبالتالي فهو يؤدي واجبا بينما قضية تراثنا اليوم هي بالتأكيد ليست في مأساة إبليس.. والثاني يشعرنا بمغالطة شبيهة بتلك انه يعالج مشكلة من مشكلاتنا المعاصرة، وبالتالي فهو يؤدي واجبه أيضا مع أن مذهب داروين لم يعد اليوم أحد مشكلاتنا المعاصرة. فذاك يريد أن يقوم بدور سارتر في عصر نحتاج فيه الى الغزالي ، وذاك يريد أن يقوم بدور فريد وجدي في وقت نحتاج فيه الى أبي حنيفة.
وكلاهما دليل على أن الجهل بالتراث أي ضعف الوعي التاريخي في أداء الواجب الاجتماعي يشوه وظيفة الاختصاص ، وان تجاوز الاختصاص في أداء هذا الواجب يسئ الى سمعة التراث.
لقد ادى الاسراف في مثل هذا الانتاج الى ان تغدو مؤلفات كثيرة وكأنها الطلاسم خاصة في السنوات الأخيرة في لبنان ومصر بوجه خاص حيث رأينا مشايخ الطرق الصوفية يكتبون في الاشتراكية العلمية.. أو رجال الصحافة أو السياسة يكتبون ويجتهدون في العبادات الإسلامية .. مما دفع كاتبا كعبد الله القصيمي لأن يؤلف كتابا بعنوان "العالم ليس عقلا" .. أن جل هذا الركام يخدم غاية واحدة هي ايصال المثقف العربي الى حدود العبث ،الذي يعني هنا استعصاء الظواهر على الفهم . ومثل هذا الموقف سيجعله يشك بفكره وقيمه ويتيه في دوامة من فوضى المفاهيم "تشل عنده ملكة التفكير وملكة الارادة ويصبح عاجزا عن التخطيط لمستقبله، بحيث يمكن وضعه في اطار مخطط جاهز. وهذا هو في الواقع جوهر الاستعمار. أو حسب تعبير الأستاذ مالك بن نبي هو القابلية للاستعمار بعينها.

[24] بهذين الذهانين يمكن ان نفسر ظهور فكرة "العبث" و"الانسلاخ" من الماضي اللتين سيطرتا على الانتاج الأدبي في السنوات العشر الأخيرة ، خاصة فيما يسمى بالشعر الحر، ويمثل الشاعر العراقي المرحوم بدر شاكر السياب – خاصة في ديوانه "أنشودة المطر" – قمة هذا التمزق الذي ذهب هو نفسه ضحيته. كما انه يمثل من جهة أخرى الاتجاه الوسط بين الذين رأوا في الشعر الحر حركة تجديدية في نطاق الشعر العربي كالدكتورة نازك الملائكة – كما في كتابها "قضايا الشعر المعاصر" – وبين الذين أرادوه وسيلة للانسلاخ الكامل لا من قواعد التراث الشعري فحسب بل من التراث العربي كله مثل خليل حاوي ومن شابهه. وقد بينت نازك الملائكة أخطار هذا الاتجاه الأخير في مقالاتها التي القتها في الدورة الخامسة لمؤتمر الأدباء العرب. راجع "حضارة الإسلام" عدد تموز **1965**. ومن الجدير بالملاحظة أن فكرتي العبث والانسلاخ اللتين سيطرتا على هذا الاتجاه قد ظهرتا عقب النكبة الأولى مباشرة.. وقد شجعت عليه حركة الترجمة المشبوهة لبعض التيارات الأدبية في الغرب عقب الحرب العالمية الثانية – سارتر، دي بفوار ، كامو ، ساغان – والتي استغلت الوضع النفسي الذي نشأ عن النكبة الأولى فنشطت نشاطا هائلا لتحقيق أغراض عملت لها أجهزة الثقافة الاستعمارية منذ أكثر من نصف قرن ... وها هي اليوم عقب النكبة الثانية تود أن تضع المثقف العربي في وضع

الجواب بالوعي التاريخي والعلم معا، بـ "اكتشاف الذات" و"ادراك المشكلة" معا ، بالتفريق بين القيم الاجتماعية للأفكار والقيم المعرفية، بين القيمة التاريخية لتراثنا والقيمة العلمية للأفكار الغربية موضوع التحدي ، بتحقيق "الشرط النفسي" الى جانب "الشرط الموضوعي" في عملية "التركيب المبدع" أساس النهضة.

بذلك يمكن أن يتحول المثقفون من "سواح" الى "رواد" ، من "هواة أفكار" الى "بناة أفكار" ، من "محترفي القاب" الى "مكتشفي ثقافة" ، من "مهرجي سياسة" الى "مهندسي نهضة".

3 – تناقضات اللبرالية والاشتراكية:

(أ) تناقضات اللبرالية العلمانية:

إن بالإمكان تخليص قضايانا في الفترة التي قامت فيها الحركة اللبرالية العلمانية – وهو ما اصطلحنا على تسميته من الناحية التاريخية "طور الثورة الوطنية" مقابل "طور التغيير الاجتماعي" – فيما يلي:

– إن وجود الاستعمار في أرضنا يدل على وجود قابلياته في نفوسنا، فلا بد من القضاء على هذه القابليات فينا لتتم إزاحته عنا، أي لابد من بعث روحي يمهد لقيام حركة النهضة.

– لا يمكن توجيه حركة النهضة وفق أهدافنا إلا إذا ظفرنا بالحرية ، أي إذا حققنا الاستقلال السياسي والسيادة الوطنية لبلادنا. ولكي نحقق ذلك لابد من إزاحة الحكم الاجنبي.

– لا يمكن أن نظفر بالحرية إلا بالثورة.

تلك كانت المشكلة وذاك كان الهدف وتلكم كانت الوسيلة فاذا تنازلنا عن "مبدأ الثورة" كانت النتيجة التمكين للاستعمار في أوطاننا، والتمكين لقابلياته في نفوسنا، وبالتالي تمكينه اما من اعاقة حركة النهضة أو من توجيهها في التيار المضاد لها. وهذا بالضبط ما دعتنا اللبرالية العلمانية اليه حين رفعت شعار "العقل" والتعقل. وهذا بالضبط هو الدور الذي قامت به حين راحت تثير القضايا التي تقضي على روح الثورة، فبدلا من ان تسهم في البعث الروحي غذاء الثورة راحت تتهجم على قيمنا الروحية وتمكن للثقافة الاستعمارية في بلادنا. وبدلا من ان نستجيب لنداء الثائر الروحي جمال الدين الافغاني ولمشاعر الجماهير الإسلامية راحت تثير قضايا "الإسلام والعقل"، "الإسلام والعلم"، "الإسلام والتطور" ، "الإسلام والسياسة" ، "الدين والدولة" ، "الإسلام والديمقراطية"، .. الخ.. مقلدا الفكر اللبرالي الأوروبي في ذلك تقليدا ت اماً

"الاستسلام المطلق" .. ليخلو لها تنفيذ مخططها. ومن المفارقات أن هذا النوع من الأدب قد تبني ما اسماه بـ"الالتزام" والذي لم يكن يعني في الواقع غير الانسلاخ واغتيال حرية الأديب لحساب "الدولة" راعية الأدب!! وذلك تمهيدا لنشوء "قومسيارية الثقافة" .. وليس أدل على ذلك من إنتاج ما أسموهم بـ"المنفيغين" الذي لم يكن غير نوع من الورم الثقافي الذي نكبت به أمتنا في ثقافتها كما نكبت في أرضها.

[25] محاولة تحويل النزوع الى الثورة الى جدل كلامي تضيع في ضجيجه قضية الحرية، وتضييع حركة النهضة في متاهة مظلمة اسمتها "السياسة" لقد تناست اللبرالية العلمانية أن الثورة ليست بنت العقل بل بنت الروح لأن الحرية هنا ليست قضية فلسفية بل قضية مصير.

لكن ما تناسته اللبرالية العلمانية وعقلانيتها ادركته الجماهير المسلمة بفطرتها، وما لم ينجزه ساستها المتعقلون انجزته شعوبنا المظلومة فثارت وظلت تقدم الضحايا حتى ظفرنا بالسيادة الوطنية.

(ب) تناقضات الاشتراكية الثورية:[26]

لم تكن السيادة الوطنية غاية نهائية بحد ذاتها بل كانت وسيلة لتوفير الشرط الضروري لتوجيه حركة النهضة وفق اهدافنا، اعنى بذلك الحرية. فالثورة الوطنية كانت مقدمة للتغيير الاجتماعي، لذلك فقد كان علينا بعد أن حررنا دارنا المتهدمة مهمتان.

1 – رفع الانقاض.

2 – إقامة البناء الجديد.

بعبارة اخرى:

– إزالة الاوضاع التي خلفها الاستعمار او ساهم بابقائها.

– مواجهة مشكلة التخلف.

بعبارة أكثر وضوحا:

– تدعيم الاستقلال السياسي باستقلال ايديولوجي.

– السير بحركة النهضة الى غايتها.

وتعتبر الخطوة الأولى مقدمة ضرورية للخطوة الثانية.

أما الأوضاع التي خلفها الاستعمار فمنها ما يعكس بعض مشكلاتنا قبل الاستعمار ومنها ما ساهم الاستعمار في ايجاده. ويمكن تلخيصها في أربعة قضايا:

---

[25] لعله من المفيد هنا ايراد أحد الأمثلة وهو كتاب فرح انطوان "ابن رشد وفلسفته"– مصر 1902 – الذي كان اقتباسا وفهما مشوشا لكتاب ارنست رينان "ابن رشد والرشدية" [باريس 1852] وقد شغل هذا الكتاب الإمام محمد عبده فترة طويلة ، ودار نقاش وجدال كثير حوله على صفحات مجلة الجامعة] آنذاك. وبهذا الجدال بين محمد عبده وفرح آنطوان يبدأ التاريخ للبرالية العلمانية في العالم العربي في رأينا. وان كانت جذورها تمتد الى أبعد من ذلك.

[26] كان ينبغي ان ندعوها "الاشتراكية العسكرية" لأن ذلك أقرب للدلالة على حقيقتها لو لا أن التعبير الاخير قد درج في الاستعمال. ولقد كان الكاتب الشيوعي أنور عبد الملك محقا حين عنون لرسالته الجامعية التي وضعها عن مصر بالفرنسية بـ"مصر مجتمع يبنيه العسكريون" فعلاً.

- التفكك السياسي.

- الجمود الفكري.

- التفاوت الاجتماعي.

- الثقافة الاستعمارية المتمثلة في (تيار التغريب).

وكانت العقبة الأولى في طريق الاستقلال الايدلوجي هي الثقافة الاستعمارية المتمثلة باللبرالية العلمانية ومؤسساتها الثقافية التي أقيمت في ظل الحكم الاستعماري لتمثل "حضوره" بعد غيابه عن أرضنا. اذ لم يكن من المعقول ان تترك الثورة الوطنية التي انتهت بالاستقلال السياسي والتي غذاها وقادها الإسلام وجماهير شعوبه للبراليات العلمانية المحلية المتمثلة بالطبقات المحلية من "الافندية والبكوات والبشوات..الخ." كي تجني ثمارها تحت ستار ديمقراطي كاذبة. لذلك فقد كان معنى ازالة الاوضاع التي خلفها الاستعمار البدء بازالة هذه الانظمة أولا وذلك كشرط ضروري للشروع بعملية التغيير الاجتماعي.

وجاءت النكبة الاولى فجعلت حتمية التغيير الاجتماعي أو الثورة الاجتماعية في صدور شعوبنا كالقدر المحتوم لا يمكن أن يقف في طريقه شئ. وهنا ونحن ندخل هذا الطور - طور الثورة الاجتماعية - جاءت "الاشتراكية الثورية" لتلعب الدور الذي لعبته "اللبرالية العلمانية" في طور الثورة الوطنية، لتحل محلها وترث مهامها في مختلف النواحي. أعني: أن تسير مرة أخرى بحركة النهضة ضد تيارها، ان ترفع شعاراتها وتغتال أفكارها، أن تدعي أهدافها وتقضي على كل امكاناتها ، ان تسرق تطلعات شعوبنا وتضعها في النهاية أمام طريق مسدود.. بعبارة موجزة أن تتبنى تصفية الثورة وقواها الحقيقية باسم الثورة نفسها وذلك حين تسير بها باتجاه مضاد لها.

ولنشرح بايجاز الآن الدور الذي قامت به الاشتراكية الثورية وتناقضاتها.

لقد كان واضحا ان الغاية من ازالة الانظمة اللبرالية وديمقراطياتها الزائفة هو الاستقلال الأيديولوجي، وكانت المهمة التالية هي مواجهة مشكلة التخلف لتحقيق أهداف النهضة وغاياتها. لكن الاشتراكية الثورية رفعت شعار "تغيير الاوضاع" لتسير بنا في طريق التبعية الأيديولوجية بدل الاستقلال الأيديولوجي. وهكذا سرقت الشعار وقتلت الفكرة .. وكذلك رفعت شعار "التقدم" وقضت على كل امكاناته حين سارت بناء في طريق "الفوضوية" التي اسمتها زورا وبهتانا "ثورة"..

والحقيقة أن هناك ترابطا عليا بين ازالة الانظمة اللبرالية والاستقلال الأيديولوجي ومواجهة مشكلة التخلف التي هي في نهاية المطاف جوهر المقصود من كلمة التغيير الاجتماعي بحيث يمكن اعتبار الخطوتين السابقتين تمهيدا لحلها. أو على الأصح لتوفير الشروط لامكانية حلها واعنى بذلك الشرطين التاليين:

1- لا بد لحل مشكلة التخلف من سيادة "العقلانية". ولا يمكن أن تسود العقلانية الا في ظل استقرار سياسي.

2- لا يمكن قيام استقرار سياسي الا بالاستناد الى أيديولوجيا . أي في ظل استقلال ايديولوجي.

ولقد كان واضحا لدى شعوبنا بعد الاستقلال الوطني أن الإسلام الذي قاد حركة الثورة الوطنية على الاستعمار هو الذي سيقود الثورة الاجتماعية للقضاء على الأوضاع التي خلفها والتناقضات التي عمقها الحكم الاستعماري. بعبارة اخرى كان من الواضح ان الإسلام هو ايديولوجيا التغيير الاجتماعي المقبل لاستدراك تطور فات المجتمع الإسلامي بالقياس الى المجتمعات الصناعية الحديثة.

ولقد كان الإسلام وما يزال قدرا على أن يحقق لنا استقلالنا الأيديولوجي الذي يوفر بدوره الاستقرار السياسي الذي يمكن في ظله تطبيق العقلانية شرط التقدم.

ولقد أصبح واضحا لدى شعوبنا بعد النكبة الأولى أن الاستقرار السياسي لا يمكن أن يتوفر في الأنظمة اللبرالية وديمقراطياتها المزيفة، والتي تسير بنا هي ايضا – على طريقتها – في طريق التبعية الأيديولوجية.

وهكذا يمكن أن نضيف الشرط الثالث لحل مشكلة التخلف عندنا وهو:

3- لا يمكن تحقيق الاستقلال الأيديولوجي إلا بتحكيم الاسلام، أو لا يمكن أن تكون أيديولوجيا التغيير الاجتماعي شيئا آخر غير النظام الإسلامي.

كان هذا هو كل معنى الثورة الاجتماعية أو التغيير الاجتماعي. وما كان يلزمنا على طريق التقدم هو "ثورية عقلانية" لا "عقلية ثورية" كما كانت الحال في طور الثورة الوطنية على الاستعمار حيث كانت الحرية هدفنا. ذلك أنه اذا كانت الحرية بنت الثورة والثورة بنت الروح فإن التقدم وليد البحث العلمي والتصنيع ، وكلاهما توأمان للعقلانية.

فإذا تنازلنا عن العقلانية ونادينا بالثورية – التي كانت في الواقع فوضوية – فقد سرنا باتجاه مضاد للتقدم ، ولو زعمنا أننا تقدميون .. واذا تنازلنا عن الإسلام ك أيديولوجيا للتغيير

الاجتماعي فقد سرنا باتجاه مضاد للثورة الحقيقية ، ولو كابرنا وقلنا أننا ثوريون.. والسبب في هذا التناقض واضح ويمكن أن نلخصه بالعبارتين التاليتين:

- دون أيديولوجيا لا يمكن قيام ثورة.

- أثناء الثورة لا يمكن قيام أيديولوجيا.

وإلا كانت النتيجة أما ثورة لا هدف لها أو ايديولوجيا تناقض أهداف الثورة. وهو بالضبط ما آلت اليه تجارب أنظمة الاشتراكية الثورية.

ولو كان الصراع يتم في "بوتقة مغلقة" لكانت لنا فرصة لاتمام تجاربنا التي بدأناها منذ أكثر من مائة سنة.. لكنه يتم في عصر صراع الأيديولوجيات العالمية. ولم تكن القومية العربية - كما لاحظ ذلك الدكتور قسطنطين زريق بحق [27]- بقادرة على تحمل ثقل المذهب الاشتراكي ، بحيث أخلت مكانها لـ"الاشتراكية" فحلت "الاشتراكية العربية" بسرعة محل "القومية العربية" . وبدأت تختفي "الاشتراكية العربية" نفسها ليحل محلها "التطبيق العربي للاشتراكية" ومازال التحول جارياً [28].. هذا هو التناقض الذي وقعت فيه الاشتراكية الثورية .. وقد كان أمره يهون لولا السبب التالي:

- أعنى وجود التحدي الصهيوني الذي كان يتطلب تبني فكرة "وحدة الأمة" بدل "وحدة الطبقة" و"الوعي التاريخي" بدل "الوعي الطبقي" و "صراع الأمم" بدل "صراع الطبقات" وهكذا. وقد زاد من خطورة ذلك السبب التالي:

- أعني الصلة الروحية العميقة بين اليهودية والماركسية ، والصلة التاريخية الوثيقة بين الحركات الاشتراكية الأوروبية الشرقية منها خاصة - والروسية بوجه خاص - والحركة الصهيونية - خاصة في عهد ستالين.

هذه الصلات التي لا يمكن أن يُفهم تاريخ الحركة الصهيونية بدونها ولا أن تُفهم نشأة الأحزاب الإسرائيلية وحركة الاستعمار الصهيوني في فلسطين بدونها أيضا، بل اننا لا نستطيع فهم واقع

---

[27] **دكتور قسطنطين زريق "معنى النكبة مجددا" ، بيروت 1967 ص 29.**

[28] **واللاهوتيون الماركسيون ينتظرون بالطبع تحقق نبؤتهم .. أعنى أن تصرع "الاشتراكية العلمية " الاشتراكية الطوباوية - الخيالية. وفي اعتقادي أن الشيوعيين الذين استطاعوا أن يحولوا حرب فلسطين من حرب بين شعبين وأمتين وثقافتين إلى "حرب إمبريالية" يهدفون اليوم إلى إن يجعلوا مهمة "البروليتاريا" "تحويل الحرب الامبريالية الى حرب أهلية" تماما لما فعل لينين. وهذا وحده هو الذي يبرر رفع شعار "الحرب الشعبية" في سوريا، والتي يناقض واقعها تماما المناقضة تحقيق هذا الشعار، واذا كان تكتيك عام1956 قد اقتضى اخراج الشيوخ والاطفال لحفر خندق حول دمشق لحمايتها من اليهود.. بحجة أن النبي عليه الصلاة والسلام فعل ذلك في المدينة..! فان تكتيك اليوم يقتضي تعميم الزي العسكري وضروب أخرى من التهريج لقد رأينا أمام اعيننا عام 1956 شيخا هرما يحمل المعول ويحفر الخندق والدموع تنهمر من عينيه فقد خيل اليه أنه يكرر فعل النبي.. بينما كان هو نفسه العوبة في يد عصابة كان زعماؤها يجلسون في أحد المقاهي ينظرون الى الركب وهم يخسرون.. ورغم أن الحادثة متعددة أوجه الدلالة فانها تبرز أي تناقض انساني عميق يكمن في جوهر الشيوعية. ومما يؤسف أن كثيرا من الشباب المسلم المثقف اليوم كهذا الشيخ أو أسوأ..**

المجتمع الصهيوني اليوم إلا إذا أخذناها بعين الاعتبار. وإنه لمن الخطأ أن يعلل الاشتراكيون الثوريون اليوم فشل أنظمتهم السياسية كما علل اللبراليون العلمانيون ذلك بالأمس أما بعامل خارجي كالاستعمار أو الامبريالية، أو بأن مجتمعنا يجهل قيمة الأفكار بدل أن يعترفوا بأنه يتجاهل تلك الأفكار – لا لأنها لا تحقق الشرط النفسي الضروري للتغيير فحسب – بل ولأنه أصبح يراها تتناقض مع أهدافه الحقيقية تناقضا صريحا. وإذا كانت اللبرالية العلمانية بالأمس تجاهلت جماهير شعبنا وتناست كثيرا من مآسيه ، فإن الاشتراكية الثورية قد ارتكبت جرما أكبر حينما باعت مأساته لحساب "حل مرتجل" وامتصت آلامه ونقمته على أوضاعه لحساب "الفراغ" .. الذي تركته يواجهه الآن. [29]

هذا الفراغ هو كل ما تطمح اليه أجهزة الثقافة الغربية لتدمير الشخصية العربية وتخريبها من الداخل أنه هو عين ما يطلقون عليه "الجو الصالح" أو "المناخ الملائم".

والآن كيف يمكن تجاوز هذه التناقضات كلها؟

الجواب بالحل الإسلامي الذي لا بديل لنا منه ولا محيص لنا عنه.

وهو حل حتمي لأنه:

من الناحية الموضوعية الصرفة يقوم على وعي جوهر الأزمة ويحقق الشرط الموضوعي والشرط النفسي لتجاوزها.

من الناحية التاريخية يضمن الحفاظ على شخصية الأمة وعلى أصالة تراثها وتميز رسالتها، وعلى وحدة واستمرار تاريخها.

من ناحية الواقع قادر على حل جميع التناقضات القائمة في المجتمع العربي اليوم، سواء اكانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. وسواء اكانت تناقضات في التركيب الداخلي للمجتمع العربي أو في صلات هذا المجتمع بالمذاهب والكتل العالمية – كتناقضات التفاوت الاجتماعي أو التجزئة السياسية أو الاقتصاد المغلق.

من ناحية المستقبل يوفر جميع الشروط الضرورية للعمل على رد التحدي الصهيوني اليهودي في فلسطين ، والتي يمكن صياغتها مبدئيا بالعبارة التالية.

---

[29] **لعل هذا ما يفسر لنا لجوء الأنظمة الأخيرة الى التغيير من طريق مزيد من العنف. فاللجؤ الى العنف في ميدان التغيير الاجتماعي هو دائما تعبير عن العجز عن ادرك الشروط النفسية للتحول – وينعكس ذلك على النظام أو الحزب الحاكم أيضا.. فكلما قلت المعرفة العلمية بتطوير بنى نظام ما أو حزب ما وحمايته من خلال ذلك ، كلما ازداد التشديد على العقاب فيمن يخرج على النظامأو على أوامر تنظيم أو تعليمات الحزب. وهذا هو الطريق نحو الدكتاتورية والارهاب. هذه الظاهرة في المجتمع هي التي نسميها لدى الفرد بـ"المراهقة" سواء في التفكير أو في التصرف. فمن يجهل "فن التركيب" لابد وأن يلجأ الى "طريق العنف". والعنف في الحركات السياسية هو تعبير عن ذهان اليأس، والتطرف في اتجاهاتها بالانسلاخ من الماضي هو تعبير عن ذهان اللامبالاة.**

الايمان منطلقنا ، والأرض هدفنا، والجهاد وسيلتنا، والعلم منهجنا، فالايمان بالحق لتحقيق ذلك الهدف بهذه الوسيلة حسب هذا المنهج هو الطريق الوحيد لاستعادة فلسطين ، المساحة الجغرافية المفقودة من وطننا بتحقيق "وحدة التراب العربي" كجزء لا يتجزأ من "وحدة دار الإسلام" . والطريق الوحيد لاسترداد فلسطين المساحة التاريخية المفقودة من ذاكرتنا وتحقيق وحدة التاريخ العربي كاستمرار للتاريخ الإسلامي.